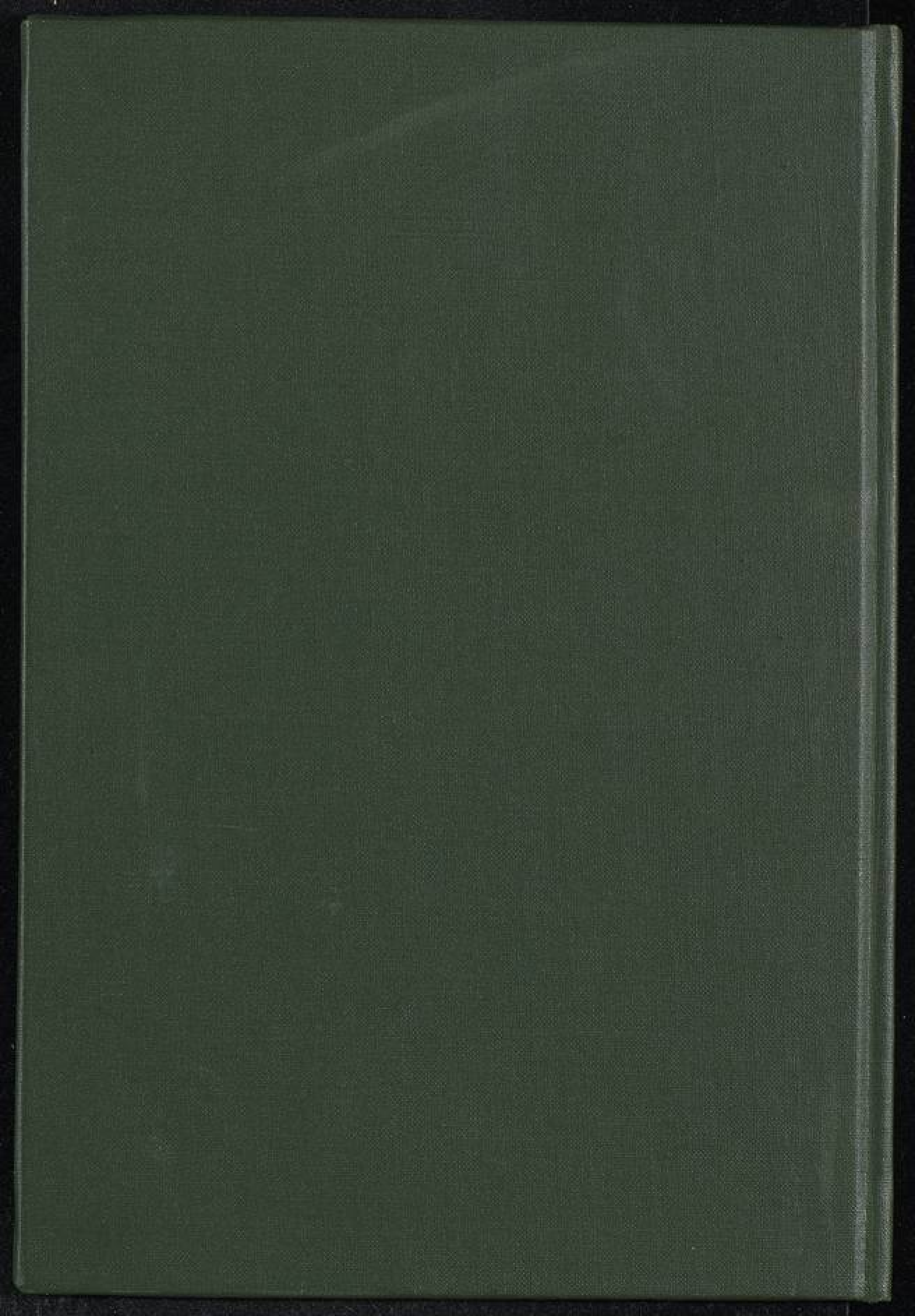
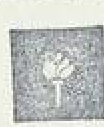
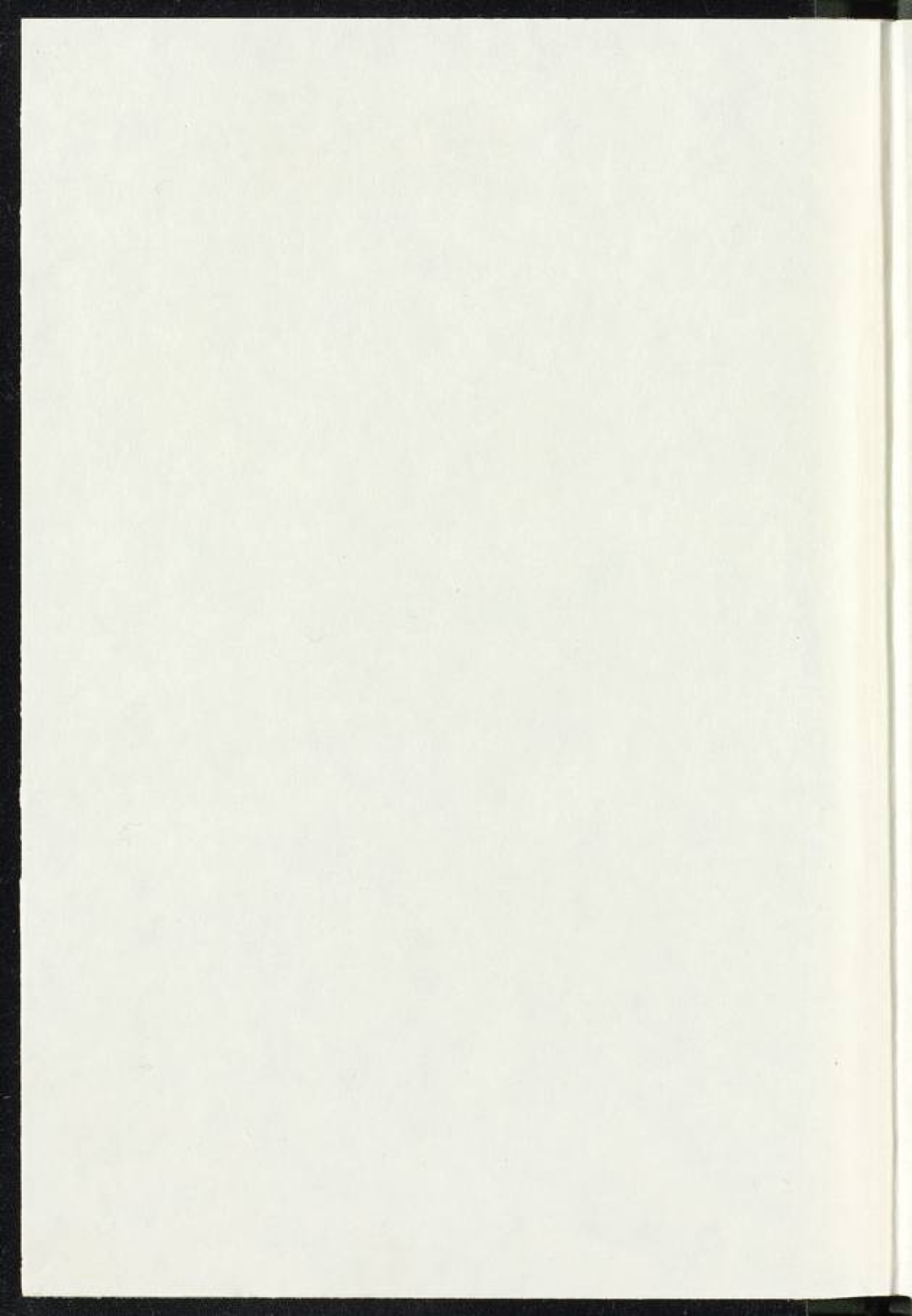
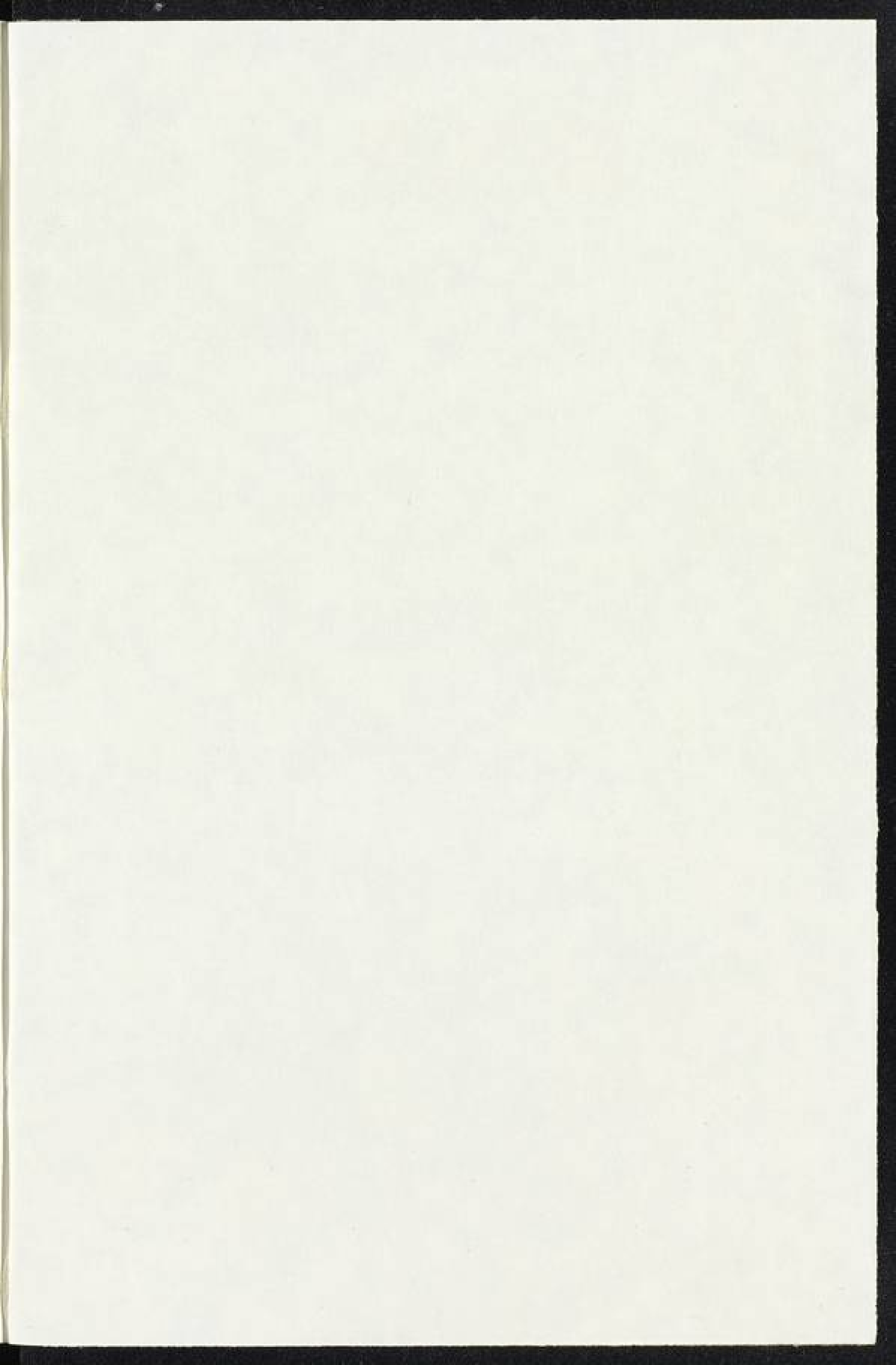






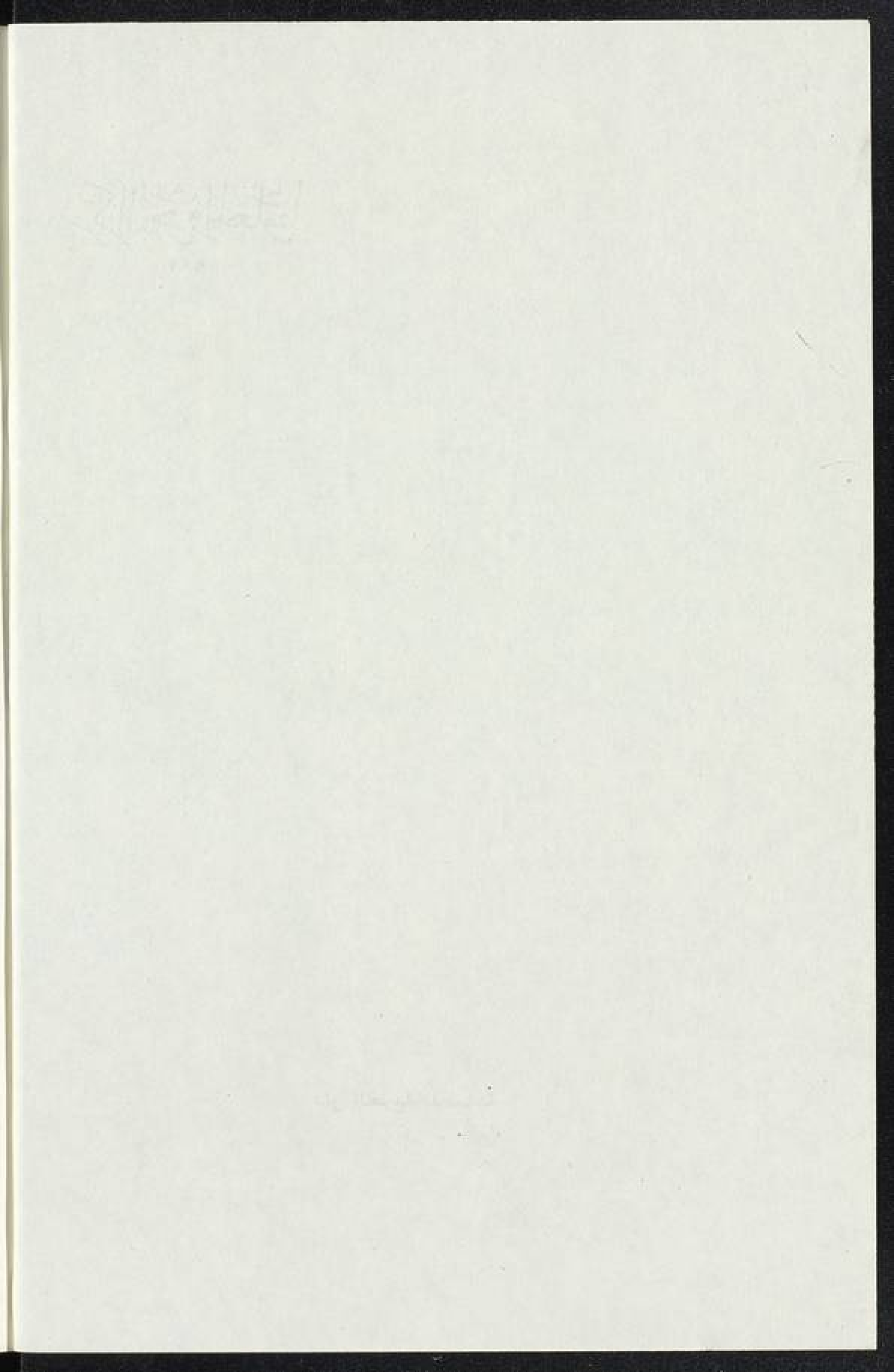






١٩٨٣

دار الحرية للطباعة



ʿAlī, Ṣāliḥ Aḥmad.

/Īrān.../

ايـران...

منظور تاريخي للشخصيّة الايرانيّة

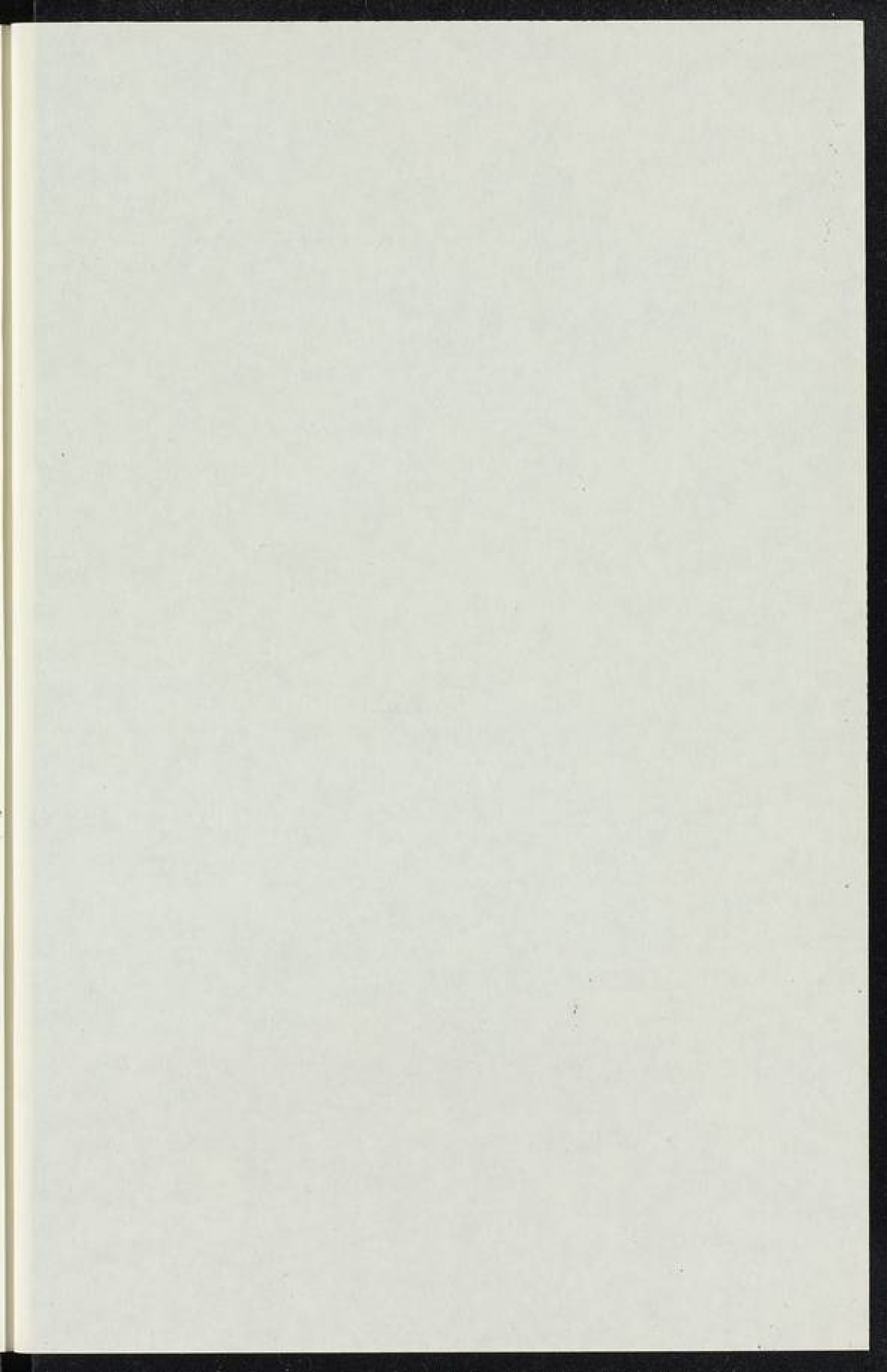
بقلم: د. صالح احمد العَلي

د. علاء نـورس

د. عماد عَبد السَلام

المحتوى

المقدّمة



هذا الكتاب ، الذي يصدر عن مركز البحوث والمعلومات ضمن سلسلة انشطته في مجال النشر ، يضم ثلاث دراسات اعدها باحثون متخصصون في التاريخ ، وهي رغم اختلاف موضوعاتها ، ينتظمها قاسم مشترك ، يلقي الضوء على واحد من ابرز اسباب العدوان الايراني على البوابة الشرقية للوطن العربي ـ العراق ـ ونعني به العامل التأريخي ، ما اختزنته الشخصية الفارسية في اعماقها من مواقف سلبية تجاه العرب ، تواترت عبر الحقب التاريخية المختلفة بغض النظر عمن يحكم في ايران ، وايا كانت طبيعة نظام حكمه . وبقدر ما يمثل هذا العامل التاريخي من ثبات نسبي في السياسات الايرانية تجاه الوطن العربي ، فهو يكشف الى حد ليس بالقليل ، مظهرا من مظاهر التكوين النفسي والاجتماعي والحضاري لدى الفرس تجاه العرب ، والمتمثل بالنزعة العدوانية وعقدة التوسع على حساب الارض العربية والسيادة العربية .

واذا كانت التجربة التاريخية المعاصرة للعلاقات بين الشعوب والامم قد برهنت على امكانية احلال التعايش والسلم فيما بينها بدلا من العداء والحروب ، وهو امر اكدته تجارب دول كثيرة اتسمت علاقاتها التاريخية السابقة بالحقد والصراع والحروب ، فان التجربة

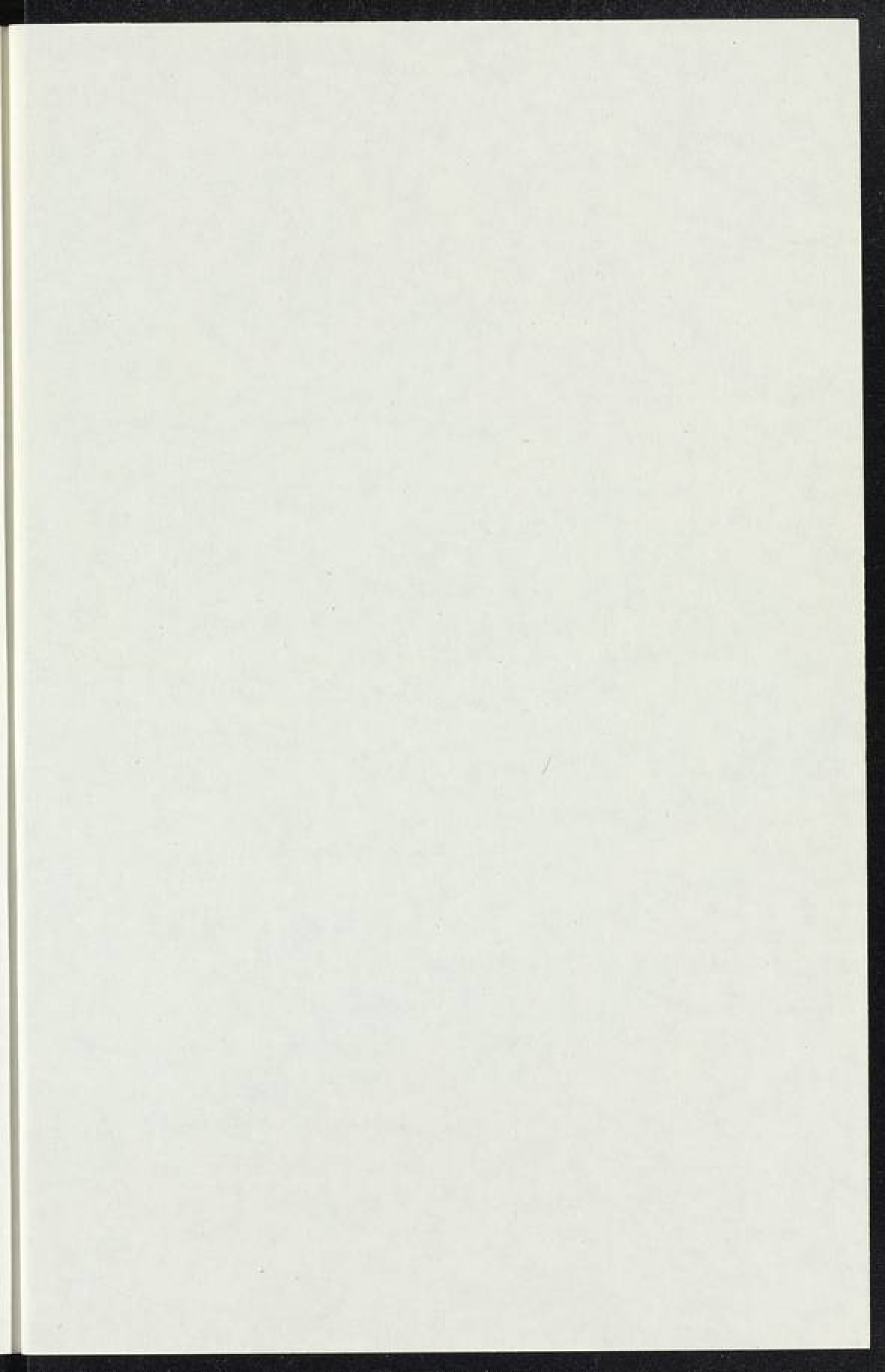
الايرانية المعاصرة ، قد اكدت بما لا يدع مجالا للشك بانها غير قادرة على التخلص من عقدة العدوان والتوسع ازاء العراق ، وانها لا تزال اسيرة الحلم الفارسي باحياء الامبراطورية الفارسية ، بالاندفاع نحو الوطن العربي ، واستباحة الارض العربية والسيادة العربية ، واذلال العروبة التي حطمت في الماضي البعيد الغرور والصلف الفارسي ، كما هي تحطم اليوم ذات الغرور والصلف الفارسي الخميني عبر معارك السنة الرابعة للقادسية الثانية ، قادسية صدام العرب ..

ان دراسات هذا الكتاب ، اذ تقدم منظورا تاريخيا لحقيقة العداء الفارسي للعرب ، في السياسات وفي التكوين العام للشخصية الفارسية ، فانها تؤكد في الوقت نفسه ، ان العرب لا يمكنهم ان يأمنوا الخطر القادم من الشرق الا في احدى حالتين ، اما ان يكونوا اقوياء موحدين ولو على جزء من الوطن العربي ، او ان يفقد الفرس وضعهم الامبراطوري وهيمنتهم على الشعوب الايرانية غير الفارسية ، وبخلاف ذلك ، فان البوابة الشرقية للوطن العربي ستظل عرضة للريح الصفراء القادمة من هضبة فارس ، وستظل كلمات القائد صدام حسين حقيقة ، لا بد ان يدفع ثمنا باهضا ، كل من يغفل عنها او يتجاهلها ، تلك الكلمات التي تقول محذرة :ـ

«تذكروا ايها العراقيون ولا تنسوا ان التحسب مما يمكن ان يأتيكم من شر واذى من جهة الشرق واجب ينبغي ان لا يغيب عن بال المخلصين وان لا تنام عيونهم وان تحتفظ به ذاكرتهم .» .

مركز البحوث والمعلومات

المدخَل



الشخصية الايرانية في منهج النقد التاريخي

منهج الدراسة :

● ان دراسة الشخصية الايرانية ذات اهمية غير عادية في الكشف عن دوافع السلوك العام للدولة الايرانية ومساراته ، ومع تقدير أهمية الدراسة الميدانية للشخصية القومية الايرانية فاننا نرى في «المنهج التاريخي» في البحث ما يعوض عن الملاحظة المباشرة في دراسة الشخصية ، وذلك لأن تلك الشخصية هي نتاج علاقات قومية واجتماعية وسياسية مرت بها ايران عبر حقب طويلة من السنين ، وان دراسة تلك العلاقات وتحليلها ، يعني ـ في رأينا ـ دراسة وتحليل «سلوك» شعوب ايران ذاتها حيث ان دراسة «سلوك» شعب ما عبر مرحلة زمنية طويلة يساعد الباحث على كشف دوافع هذا السلوك ومبرراته وردود افعاله . وعمل الباحث المؤرخ هذا يشبه عمل المحلل النفسي الذي يدرس «سلوك» فرد معين ، عبر تحليل مراحل حياته للتوصل الى فهم دوافعه ، بغية وضع الحلول المناسبة لها . ومما يساعد على اتباع هذا المنهج طبيعة تاريخ ايران نفسه حيث يلاحظ على هذا التاريخ تكرار جملة من ظواهره الأساسية . وهذا التكرار لا يمكن تفسيره الا على اساس «وحدة الدوافع» عبر المراحل المختلفة ، وهي التي تؤلف السمات الرئيسة للشخصية الايرانية موضوعة

البحث ، ونحن نرى انه لكي يمكن تحديد سمات تلك الشخصية ، ينبغي اولا تحديد أهم خصائص التاريخ الايراني وابرزها

خصائص التاريخ الايراني :

١ ـ على الرغم من أن ايران تتألف من بيئات جغرافية متعددة ومتنوعة ، فان بيئة الهضبة الايرانية التي تشكل الجزء الاكبر من مساحة ايران ، هي البيئة الاغلب على عموم البيئات الاخرى . وكانت سيطرة القومية الفارسية على هذه البيئة منذ القدم ، قد جعلها في موضع الغلبة على بقية القوميات في البيئات الآخرى . وبكلمة موجزة ، فان هيمنة بيئة الهضبة على بيئات ايران الاخرى تساوي هيمنة القومية الفارسية على قوميات ايران الاخرى .

٢ ـ كانت الرقعة الجغرافية التي قامت عليها «ايران» فيما بعد . تشغلها قديماً كيانات سياسية متعددة تؤلفها قوميات مختلفة ، فكانت ثمة امارات تركية وميدية وعربية وامارات قومية اخرى . والسمة الغالبة على هذه الكيانات السياسية انها كانت متوازنة من حيث ان احداها لم تكن تحقق سيادة على الاخرى ، وفي ظل تلك الأوضاع لم تكن ثمة ايران اصلا ، وانما وجدت ايران عندما حقق الفرس سيطرتهم على تلك القوميات لأول مرة في عهد الأخمينيين واستمرت هذه السيطرة الفارسية منذ ذلك الحين .

٣ ـ وتأسيساً على ذلك فان سيطرة الفرس على القوميات الاخرى تساوي وجود ايران نفسه . وبأنتهاء هذه السيطرة لايعد ثمة كيان ايراني اصلا .

٤ ـ وطالما كان وجود ايران نتيجة «لسيطرة فارسية» على شعوبها فقد كان لزاماً على اية سلالة تتولى الحكم . حتى ولو لم تكن فارسية . ان تنتهج السلوك الفارسي . لأن تخليها عن هذا السلوك

يعني تفكك ايران وقيام كيانات مستقلة لقومياتها . والتاريخ الايراني الحديث غني بالأمثلة التي تؤكد هذه الفكرة ، فالأفشاريون الترك والزنديون الاكراد والقاجاريون الترك . كلهم لم يكونوا فرسا من حيث القومية وانما كانوا كذلك من حيث السلوك .

٥ ـ يتضح مما تقدم ان الفارسية ليست قومية فحسب . وانما هي عقدة عنصرية ، مثلها في ذلك مثل الصهيونية ، قد يعتنقها غير الفارسي ، كما قد يعتنق غير اليهود الصهيونية .

٦ ـ أوجد الفرس حالة من «التوجس» لدى الشعوب غير الفارسية في ايران من القوى والحضارات التي قامت في الوطن العربي وبحجة حماية تلك الشعوب هيمنوا عليها تدريجيا وأعطوا لأنفسهم مبررا لقيادتها وفق مصالحهم .

٧ ـ ولما كان التاريخ يدلنا على عدم وجود اي مبرر حقيقي لهذا التوجس ، فان الفرس كانوا يعمدون الى اختلاق حالة من الأضطراب والتوتر يتخذون منها مبرراً لتحقيق نزعتهم التوسعية على حساب جيرانهم العرب بأعتبارها الوسيلة الوحيدة لفرض هيمنتهم على القوميات الأخرى ، وهذا ما يفسر سلوك ايران العدائي ازاء الأمة العربية عبر مختلف العصور .

٨ ـ ان تكون ايران من قوميات متعددة مختلفة أصولا وثقافة جعلها عرضة للتفكك والأنهيار السريع ، هذا ماتكرر حدوثه في التاريخ الايراني حيث تفككت ايران على اثر سقوط الدولة الأخمينية والدولة الفرثية في العصور القديمة . وكذلك سقوط الدولة الصفوية ومن ثم الأفشارية في العصر الحديث . واستمرار تكرار هذه الحالة حتى أوائل القرن الحالي .

٩ ـ ان استثارة عقدة التوجس من الأخطار الخارجية التي تحيط بايران كانت السبب الأول في توحيدها وقيامها كدولة موحدة . ولذلك فكما كان انهيارها يتسم بالسرعة فان عودتها كيانا موحداً

كان يتسم بالسرعة نفسها .

١٠ ـ ان سقوط الدولة الساسانية على يد العرب الذين حملوا الى رعاياها الدين الأسلامي كان يعني زوال السيطرة الفارسية في عموم ايران ، وهي السيطرة التي تمثل حقيقة النظام الطبقي الساساني ، ومن هنا اتخذ الفرس موقف العداء من العرب باعتبارهم الذين أفقدوهم تلك السيطرة .

١١ ـ ان اعتناق الفرس للأسلام قد خلق حالة من الأزدواجية لدى الفرد الفارسي . فلقد اعتنق الأسلام ولكنه سرعان ما كيفه وفق تراثه القديم وصورة تلك الدولة الساسانية التي قضى عليها العرب المسلمون ، ولذلك استخدم الفرس سلاح الدين لتقويض الدولة التي اقامها العرب في مقابل تدمير العرب لدولتهم بالسلاح نفسه .

١٢ ـ ان وجود السلاح يعني ضرورة وجود «اليد» التي تحمله ، ولم تكن هذه اليد الا مؤسسة دينية نشطة أوجدها الفرس بغية توظيفها لتحقيق هدفهم في ضرب الوجود العربي . وان وجود هذه المؤسسة ودورها في قيادة الكيان الايراني قد بدأ منذ أن اعتنق الفرس الديانة الزرادشتية وحتى انهيار الساسانيين .

حقيقة ان المكونات الفكرية لهذه المؤسسة قد تغيرت بظهور الأسلام ، إلا ان دورها السياسي والأجتماعي استمر ، بقوته ، في العصور الأسلامية ، وحتى الوقت الحاضر في توحيد ايران تحت السيطرة القومية الفارسية .

١٣ ـ مرت ايران ابان الأعصر الحديثة ـ بظروف سياسية واقتصادية كان لها اثر كبير على وجود المؤسسة الدينية وتطورها ، فلقد ادى انهيار النظم السياسية الشرعية في المشرق الأسلامي . وبخاصة مؤسسة الخلافة ، على يد قوى وثنية غاشمة تمثلت بالمغول وقبائل أخرى ، الى حدوث انكسار عنيف في النفسية الأسلامية عموما . وكان خراب الرقعة الجغرافية التي قامت عليها ايران وتدمير مدنها وانهيار مؤسساتها الأسلامية قد دفع بعدد من المفكرين

الفرس الى محاولة بث افكار ذات طابع صوفي غيبي يحاول التأكيد على النواحي الغيبية المثالية للتغلب على مأساوية الواقع المعاش آنذاك

وبعد ان كان الفرس يجدون في الأنكفاء على انفسهم والعزلة سلاحاً للابقاء على ذاتهم وسط ذلك المحيط . اصبح التصوف ، الذي هو نتاج لفترة الأنكسار والخمول ، يمثل المناخ الملائم لأحداث مثل ذلك الأتصال فأخذ المفهوم الفارسي للأسلام يجد طريقه الى عموم الرقعة الجغرافية التي قامت عليها ايران ، ممتزجاً بمفاهيم صوفية ، بل ان عدداً من كبار مفكري الفرس ، كالطوسي مثلا ، استطاعوا ان ينشروا أفكارهم تلك في اوساط الحاكمين ، فساعد ذلك على تسريع حركة اعتناق تلك المفاهيم وتعميقها وكانت ثمرة ذلك كله ان ولدت اسرة حاكمة اتخذت من الاسلام الفارسي الممتزج بالتصوف وغيبياته مذهباً رسمياً وحيداً لأيران فكان ذلك الحدث بداية تغير سياسي واجتماعي كبير عم ايران بأجمعها ، واثر على سلوكية الفرد الايراني تأثيراً بالغاً محسوساً على مجرى تأريخه ، فلقد اضفى اعتناق الاسرة الصفوية لهذه المفاهيم على «الدولة» في ايران صفة شرعية افتقدتها منذ الاحتلال المغولي للمشرق الاسلامي .

ان اسرة حاكمة جاءت ثمرة لمناخ فكري معين ، كان طبيعيا ان تجعل من ذلك المناخ فكراً لها ، ومن رجاله دعاة لهذه الفكرة ، ومن هنا تحولت المؤسسة الدينية الفارسية الى مؤسسة حاكمة حقيقية وان كان حكمها يمارس من خلال «الدولة» ذاتها . ولقد خلق هذا الوضع الجديد تحولا جديداً في الشخصية الايرانية التي اعتادت ان تنظر الى المؤسسة الدينية ككيان مستقل عن المؤسسة السياسية فغدت – الان – متحالفة معها . بيد انه من الضروري القول بأن هذا التحالف كان يستند الى توازن دقيق بين قوتين مختلفتي التركيب تمتد جذورهما الى عمق التاريخ الايراني ، وليس هو مجرد اتحاد ، او اندماج ، بينهما ، وعلى ضوء ذلك فقد تميزت العلاقة بين المؤسستين الدينية

والسياسية في ايران ابان العصر الحديث بالتعقد حيث كان للمؤسسة الدينية نصيبها في دعم النظام السياسي وتمجيد وبسط نفوذه على سائر الشعوب الايرانية من ناحية ، ومن ناحية اخرى فقد اتخذت هذه المؤسسة في احايين مختلفة موقف المعارضة القوية من النظام كلما شعرت بأزدياد سلطانه على حسابها ، وفي المقابل اتخذ النظام السياسي موقفاً مسانداً للمؤسسة الدينية بغية الاستفادة من امكاناتها في تثبيت دعائم سيطرته السياسية ، ولكنه حاول ايضاتقليم اظافرها كلما شعر بأن نفوذها قد اصبح يهدد وجوده ، وبعبارة مجملة يمكن القول بأن كلا من الطرفين حاول الاستفادة من الآخر وتوظيفه في خدمة اهدافه وهو ما ترك اثاره واضحة على سلوكية القوى الاجتماعية في ايران ، ومن ثم على شخصية الفرد الايراني نفسه .

١٤ ـ كان للمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها ايران منذ مطلع القرن الحالي اثار مهمة على طبيعة العلاقة بين المؤسستين الدينية والسياسية ، فازاء تنامي الفكر الاجتماعي وتعدد المدارس الداعية الى أنواع من وسائل التغيير ، كالليبرالية والفاشية والماركسية .. الخ ، حاول النظام الاستفادة من المؤسسة الدينية لتعزيز مواقعه الفكرية ازاء مثل هذه التيارات ، ولكن بما لا يحقق تفوقها عليه ، وفي الوقت نفسه كانت المؤسسة الدينية تشعر بان وجود النظام يمثل وقاية لنفوذها من تأثيرات هذه الاتجاهات ، وهذا يفسر لنا طبيعة التحالف بين الطرفين في عهد البهلويين وحتى الستينات من هذا القرن ، وبخاصة عند وقوف المؤسسة الدينية الى جانب الشاه ضد حركة مصدق .

١٥ ـ ان التناقضات التفصيلية بين المؤسستين سرعان ما طغت على حالة التحالف بينهما ، وسبب ذلك يعود الى ان النظام حاول منذ مطلع الستينات «سحب البساط» من تحت اقدام المؤسسة الدينية بتقديمه تنازلات اقتصادية للقوى الاجتماعية في ايران وهو

ماعرف بأسم «الثورة البيضاء» سنة ١٩٦٣ ، ولم تغفر المؤسسة الدينية للنظام هذا العمل الذي قلل من فرص تأثيرها على المجتمع ولذلك فأنها اتخذت طريقتين في مواجهة المأزق الذي انتهت اليه : —

أ — محاولة تحديث الفكر الديني عن طريق تثويره ، وهذا يعني ان الحركةالاولى التي قادتها المؤسسة الدين؛ واثمرت قيام الدولة الصفوية قد استنفدت محتواها في هذا الحقبة وصار دعاة مثل علي شريعتي الذي يعد ابرز مفكري المؤسسة الدينية خلال الستينات والسبعينات يدعون بصراحة الى نبذ ما سموه ب «التشيع الصفوي» المستند الى افكار تؤمن بالرجعة والغيبة والتقية ، واحلال تشيع حديث يفسر هذه الأفكار تفسيراً جديداً يقوم على أساس يرضي طموحات الفئات الفقيرة والمثقفة على حد سواء من الجيل الجديد واحتل السيف والدم مكانهما كرموز للفكر الديني الجديد وأصبحت الدعوة الى العنف وسيلة للتغيير وتحقيق أهدافها .

ب — اعلان المؤسسة الدينية عن نبذها الكامل للمؤسسة السياسية والتلويح بضرورة وصولها الى السلطة كبديل لها ولقد شهدت فترة السبعينات نشاطا متعاظماً ضمن هذا الاتجاه .

١٦ — اتخذت المؤسسة الدينية من تراثها التأريخي الطويل وسائل لتحقيق أهدافها السياسية التي لا تختلف من حيث الجوهر عن أهداف أية سلطة حاكمة تولت الحكم في ايران وهي :

أ — على الصعيد الداخلي : تأكيد استمرار هيمنة القومية الفارسية على القوميات الآخرى في ايران ، تحت غطاء من المركزية الروحية القوية .

ب — على الصعيد الخارجي : المضي في سياسة صرف انظار الشعوب الايرانية عن واقعها وطموحاتها في نيل حقوقها القومية ، وذلك بالتأكيد على حالة التوجس التي اشرنا اليها ، من جيرانها العرب ، واعطاء هذه الحالة مبررات طائفية مفتعلة وهو ما استدعى الاستمرار في نهج التوسع الخارجي كما تمثل في سياسة الفئة التي تسلمت

السلطة في ايران سنة ١٩٧٩ .

١٧ ـ فسرت المؤسسة الدينية الايرانية التاريخ الاسلامي تفسيراً رمزياً محضاً هدفه تبرير اغراضها السياسية داخلياً وخارجياً ، فالعدوان المسلح على الامة العربية صور للفرد الايراني على انه مجرد اخذ بثأر الامام الحسين (ع) . ومناصبة القيادة الثورية في العراق العداء ، لم يفسر الا بطروحات من هذا النوع .

١٨ ـ لقد تضافرت المؤسستان الدينية والسياسية على تنشئة الفرد الايراني ضمن ماتقدم من مفاهيم ، فجعلت من مناهج التعليم في المراحل كافة ما يخدم اهدافها حيث تضمنت مايأتي :

أ ـ كشفت هذه المناهج على نحو متعمد او غير متعمد عن ازدواجية حادة في فكر الفرد الايراني ، فحفلت الكتب المدرسية بعبارات كثيرة عن الاسلام وبعض رجاله ، وفي الوقت نفسه بتمجيد للحقبة الساسانية تصوير العرب حملة الاسلام ورجاله الاوائل بانهم غزاة رعاة همج[1] وان معارك الاسلام الاولى كالقادسية وجلولاء ونهاوند ان هي الا غزوات بدوية قبلية ضد قوات امبراطورية عريقة متمدنة .

ب ـ عكست هذه المناهج عنصرية الفكر الفارسي وذلك بتأكيدها على تفوق العنصر الآري (وهنا تشترك في بعض مفاهيمها ومقولاتها مع الفكر النازي) وجعل ذلك مبرراً لأغتصاب حقوق القوميات الاخرى .

ج ـ كشفت هذه المناهج عن روح طائفية بحتة في تناولها لتاريخ ايران خاصة والتاريخ الاسلامي عامة ، وهي تفسر بعض تفاصيل التاريخ الاسلامي وفق هذا المنظور .

سمات عامة :

١ ـ الازدواجية تجاه الدين : تتسم الشخصية الايرانية بازدواجية حادة تجاه الدين : هذا الدين الذي قضى على «دولتهم» من ناحية ، وأعطاهم رموزهم الروحية من ناحية أخرى .

٢ ـ الازدواجية تجاه السلطة . كما تتسم الشخصية الايرانية

بأزدواجية مماثلة تجاه السلطة السياسية في ايران ، فهي تمثل لدى الفرد وحدة ايران واطماعها من ناحية ، كما تمثل منافساً خطيراً يهدد السلطة الدينية من ناحية اخرى ، ولذلك فأن السلطتين تتنافسان على عقل الفرد الايراني وقلبه ، وهذا ما اوضحته اجابات الاسرى الايرانيين بشان تقييمهم للعلاقة بين الجيش النظامي الايراني (السلطة السياسية) وحرس خميني (السلطة الدينية) .

٣ ـ العنف : تتسم سلوكية الفرد الايراني طوال تاريخه ـ بالعنف الذي يصل الى حد القسوة البالغة ، فهو يخاطب العقل بيده لا بعقله ، وهو نتيجة لشعور هذا الفرد بالنقص تجاه حضارات فاقته رقياً وتقدماً ، وهو نوع من الاستجابة لما يتصوره في الاسلام من الازدواجية على شخصيته .

٤ ـ التوجس : تتميز الشخصية الايرانية عموماً بحالة من التوجس المستمر على الصعيدين الداخلي والخارجي ، ففي الداخل ثمة توجس من القوميات المنافسة ومن السلطة السياسية ومن السلطة الدينية احياناً ، وفي الخارج توجس من اخطار خارجية مستمرة حقيقية حينا وموهومة احيانا اخرى ، وهذا التوجس خلق في تلك الشخصية حالة من الانغلاق والانكفاء الذاتي على قيم ومفاهيم بالية ترقى الى حقب سالفة .

٥ ـ تأليه الحاكم : اتسمت الشخصية الايرانية بميل نحو تأليه الحاكم وخلق حالة من القدسية والمجد حوله وذلك لأن تركيب ايران القومي المتنوع وبيئاتها المتباينة دفعت بالمؤسسة الحاكمة ، دينيه ام سياسية ، الى اضفاء صفات مطلقة على الحاكم المركزي لأيران ليكون رمزاً لوحدتها يعلو على ذلك التنوع . ومطمحاً لآمالها يتجاوز ذلك الواقع المتباين .

٦ ـ الطائفية : تتسم نظرة الفرد الايراني الى علاقاته بالعالم وبجيرانه بنظرة طائفية بحتة تسقط احداث الماضي على الحاضر

وتستلهم وقائعة بما يرسخ في نفسه مـــن مشـــاعر انكتهـــا التربية الموجهة التي اشرنا اليها . ان الطائفية لدى الفرد الايراني ليست نوعاً من المذهب او طريقة لفهم الدين ، وانما الوجه الآخر لعقيدته السياسية نفسها .

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف
الدكتور علاء موسى كاظم نورس

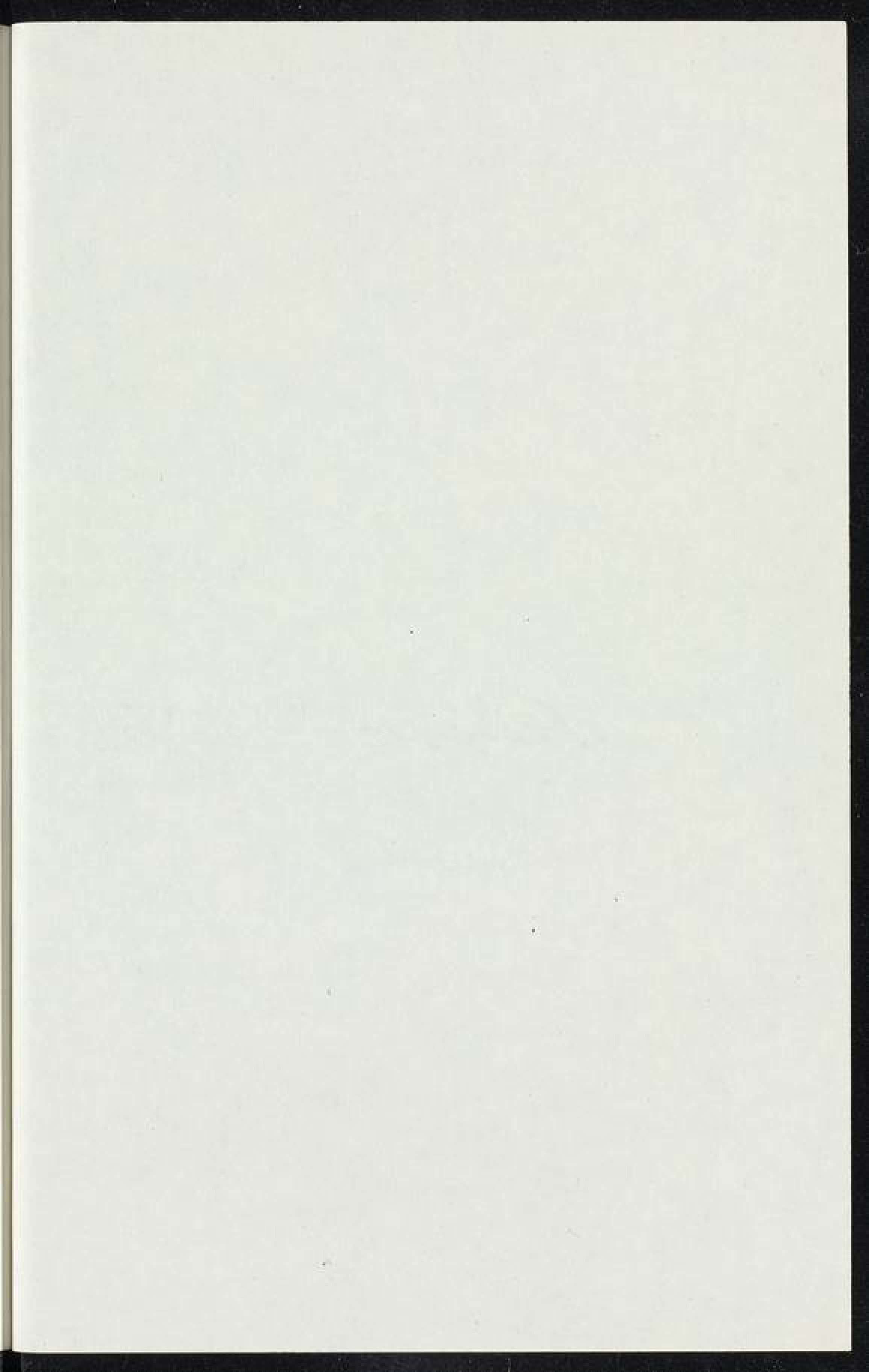
---

(٢) انظر كتاب «التفريس اللغوي في الاحواز» لكاتبي البحث ، حيث ورد فيه تقـرير مفصـل عن الكتب المنهجية المقررة في مدارس ايران وما تتضمنه من نصوص تاريخية وجغرافية تتعلق بالوطن العربي : بالأصـل الفـارسي وترجمته العربية (بغداد . دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢) ص ٥٣ ـ ٦٦ .

البحث الأول

نظرات في الساسانيين ومقومات حكمهم

الدكتور صالح احمد العلي



دولة الساسانيين

تذكر المؤلفات العربية ان اقاليم الهضبة الايرانية ظهـرت فيهـا في التاريخ القـديم اربع دول كبيرة ، هـم الفيشـداديون ، والكيانيون ، والاشكانيون ، ثم الساسانيون ولا تفصل هذه المؤلفات في تاريخ الدول الثلاثة الاولى بسبب قدمها وندرة المعلومات المتوفرة عنهـا ، وتناقض الاخبار المتعلقة بهـا ، والواقـع ان هـذه الدول لم تخلف تراثا ادبيا معتمدا ، وكان مجيء الأسـكندر المكدوني وسـيطرته على بلاد الشرق الاوسط من اسـباب اندثار الاثار الفـكرية القليلة التي كانت لهـذه الدول ، حيث ان الاسكندر قضى على تلك الاثار ، ونشر هـو واحفـاده اللغة اليونانية التي اصبحت لغة الفكر في كافة ارجاء العالم المتحضر الممتد من اواسط اسيا والى اقاليم البحر المتوسط .

اما الدولة الساسانية فكان لها وضـع خـاص تميزت فيه عن الدول الايرانية الثلاثة القديمة ، ذلك ان هذه الدولة تكونت في اواسط القـرن الثالث الميلادي ، وشمل حكمها البلاد والاقاليم الممتدة من نهر الفرات غربا الى جيحون في اواسط اسيا شرقا ، ودامت قـائمة مـدة اربعـة قرون الى ان قضى عليها العرب في اواسط القرن السابع الميلادي .

دولة العرب وسماتها : الحرية

قضى العرب على الدولة الساسانية بعد ان انتصروا عليهـا في ثلاث

معارك حامية ، وبقضائهم عليها هيمنوا على كافـة البلاد والاقـاليم التي كانت تحت حكم الساسانيين ، واصبحت الدولة الجـديدة تضـم كافة مراكز الحضارة والثقافة الساسانية القديمة ، وكافة مـن تبقـى من اتباع السـاسانيين وانصـارهم والشـعوب التي كانت خـاضعة لحكمهم . واتاحت هذه السيطرة الشـاملة مجـالا لبقـاء التنظيمـات الادارية القديمة ، والمراكز الفكرية القديمة ، ورجالها الذين لم يعد لهم مهرب ، فظلوا مقيمين في بلاد الدولة الجديدة ولم يتركها الا القليل جدا ممن هرب الى الهند او الى اواسط اسيا .

وفر العرب لمن ظل مقيما في دولتهم الجديدة حرية العمـل والتنقـل والتفكير ، واستخدموا منذ بداية توسع الدولة العربية ، عددا غير قليل منهم في ادارة كثير من المدن ، وفي الدواوين ، واباحـوا لهـم متابعـة السير على اساليبهم القديمة مادامت لا تمس امـن الدولة ولاتتحـدى المثل العليا التي يعتز بها العرب ، وبقي العاملون في دواوين الخـراج وشؤون المالية يسيرون على اسـاليبهم القـديمة ويسـتعملون اللغـة الفارسية في الدواوين ويسكون النقود على الطراز الساساني ، ويقوم «دهاقينهم» في جباية الخراج ، وظل الامر على ذلك الى سنة ٧٥ حيث الزموا في العراق باستعمال العربية في مكاتباتهم ومعاملاتهم . ولكنهم بقوا في وظائفهم ، ولم يقصوا منها ، ولم تفرض عليهم اساليب جديدة تحل محل ما كانوا يتبعون .

سارت الادارة العربية على اسس من الحـرية والروح الانسـانية ، فكان لذلك اثر في رضى الكثيرين بالحكم الجديد وتقديراً لمثله ، فلم تقم ابان القرن الاول الهجري اية ثورة ضد الحكم العربي ، حيث ان كافة الثورات التي حدثت في ذلك القرن قام بها العـرب ، لا لازالة الحـكم العربي ولكن لتحدي بعض الحكام العرب محـاولة ابدالهـم بحـكام اخرين من العرب ، وشارك بعض الاعاجم مـن «الموالي» في عدد مـن هذه الثورات ، ولكن مشاركتهم كانت مقصـورة على اسـناد الثائرين لتحقيق طموحاتهم في «تبديل حاكم عربي باخر وليس في القضـاء على

الحكم العربي . ومن مظاهر تقدير هذه الشعوب «المثل العربية» اقبالهم على اعتناق الاسلام طوعا ، والتسمي باسماء عربية ، وقد تم ذلك بصورة سلمية هادئة ، ومن دون فرض او اجبار ، وانما بالعكس توجد اشارات الى ان اعتناق الاسلام كان يلقي على من يسلم اعباءا مالية اضافية .

ومن مظاهر الرضى والتقدير المنبعث من الحرية هو اقبال عدد غير قليل على تعلم اللغة العربية ، ودراسة «علوم العرب» ومايتصل بالقرآن الكريم والحديث النبوي والعلوم المتعلقة باللغة العربية وادابها ، وكلها معبرة عن ثقافة العرب ، ممكنة لمثلهم الفكرية .

لم تقصر هذه الحرية على طبقة محددة او جماعة معينة ، وانما كانت شاملة عامة ، وكان من اثارها ازدهار الفكر ونشاطه في عدد غير قليل من المدن والمراكز من العراق فحسب ، وانما حتى في ارجاء من الهضبة الايرانية وليس من قبيل الصدف ان تكون هذه المراكز حيث استقر العرب واستوطنوا ، وان تشهد بلاد الهضبة الايرانية أروع ازدهار فكري وحضاري بعد أن اصبحت هذه البلاد في دائرة الحكم العربي ، وان ينصب أعظم النشاط على المعارف المتصلة بالعرب ، والتي عنى بها العرب ، والتي توضح فكر العرب وتراثهم ، وان يتم هذا الازدهار ذاتيا وتلقائيا دون اجبار قسري من السلطة ، او دون حصر في طبقة معينة .

ومن مظاهر واثار الحرية التي رعاها العرب ، ورحابة صدرهم ، اتاحة المجال لكثير من الاعاجم اشغال مناصب كثيرة ، وبعضها عالية في ادارة الدولة ، وخاصة بعد تولي العباسيين الخلافة ، مما دفع البعض الى وصم دولة العباسيين بانها اعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية أعرابية ، ومن أجناد شامية (البيان والتبيين للجاحظ ٣ / ٣٦٨) .

المتعصبون للفرس

ان هذه الحرية التي توفرت للدولة ، يسرت للمعجبين بالساسانيين والمتعصبين لهم ، مجالا واسعا لابداء آرائهم والافصاح عن مكنونهم والمجاهرة بالاشادة بالتراث الساساني ، حتى ولو كان على حساب الثقافة العربية والاسلامية التي تتبناها الدولة والتي يسرت لهم البقاء .

وذكر الجاحظ من ذلك ما كان سائدا في أوساط الكتاب ، وهم موظفو الدواوين المشرفون على جزئيات الادارة ، وخاصة المالية ، والذين كانوا «موظفين في الدولة» ، فقد ذكر الجاحظ في رسالته «ذم اخلاق الكتاب» التي لم يصلنا الا تلخيص لها ، صلف الكتاب وتفاخرهم وتعاليهمم ثم قال :

«ثم ان الناشيء فيهم اذا وطيء مقعد الرئاسة وشورك مشورة الخلافة وحجزت السلطة دونه ، وصارت الدواة أمامه ، وحفظ من الكلام فتيقه ، ومن العلم ملحه ، وروى لبزرجمهر أمثاله ، ولاردشير عهده ، ولعبد الحميد رسائله ولابن المقفع أدبه ، وصبر كتاب مزدك معدن علمه ، ودفتر كليلة ودمنه كنز حكمته ـ ظن انه الطاروق الاكبر في التدبير ، وابن عباس في العلم والتأويل ، ومعاذ بن جبل في العلم بالحلال والحرام ، وعلي ابن أبي طالب في الجرأة على القضاء والأحكام ، وابو الهذيل العلاف في الجزء والطفرة وابراهيم بن سيار النظام في المكامنات والمجانسات ، وحسين النجار في العبارات والقول بالاثبات ، والاصمعي وابو عبيدة في معرفة اللغات والعلم بالانسان ، فيكون أول بدوه الطعن على القرآن في تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم يظهر ظرفه بتكذيب الاخبار ، وتهجين من نقل الاثار ، فان استرجح أحد عنده أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتل عند ذكرهم شدقه ولوي عند محاسنهم كشحه ، وان ذكر عنده شريح جرحه ، وان نعت له الحسن استثقله ، وان وصف له الشعبي

استجمعه ، وان قيل له ابن جبير استجهله ، وان قدم عنه النخعي استصغره ثم يقطع ذلك من مجلسه بسياسة اردشير بابكان ، وتدبير آنوشروان واستقامة البلاد لآل ساسان» (رسائل الجاحظ / ١٩١ / ٤)

وقد رددت معظم الكتب التي تُعنى بتاريخ التطورات السياسية والفكرية والحضارية في بلاد الشرق الاوسط أحكاما تشيد بالدولة الساسانية وعظمة ملوكها وازدهار الحضارة في عهدها وتقدم الفكر في زمنها ، وأدت كثرة ما قيل في ذلك الى اعتقاد الكثيرين بصحة هذه الاحكام واعتبارها اموراً مسلمة . ان التدقيق في دراسة المعلومات التي وصلتنا عن الحكم الساساني وأحواله تظهر عدم دقة الأحكام التي قيلت فيه ثلاثة أمثلة منها أعلاه ، اذ يتبين من تدقيق المعلومات المعتمدة ان عدد الملوك الساسانيين الاقوياء قليل ، وان نسبتهم الى عدد الضعفاء واطئة ، وان الازدهار الفكري والحضاري مبالغ فيه . وان الأحكام عن علو مكانتهم هي من صنع الأجيال المتاخرة ، وسنقتصر في هذا البحث على معالجة تقدير مكانة الملوك الساسانيين ، ومدى سلطاتهم ، وطبيعة علاقتهم بالشعوب التي ضمتها دولتهم ، ومدى ازدهار الحركة الفكرية في زمنهم .

ذكرنا من قبل ان العرب قضوا على حكم الساسانيين ، وهيمنوا على كافة البلاد التي تتبعهم ، الأمر الذي أدى الى أن يبقى أنصار الساسانيين والمتعصبين لهم مقيمين في الدولة الاسلامية الجديدة ، وتمتعوا بحرية واسعة تتيح لهم الحفاظ على أفكارهم وعقائدهم ، وعلى استعمال لغاتهم الخاصة ، واحتفظت الديانة الزرادشتية التي كانت الدين الرسمي للملوك الساسانيين بتنظيماتها ومركزها شان الديانات الاخرى ، وعومل أتباعها معاملة أهل الكتاب .

وأشغل عدد من مؤيدي الساسانيين والمتعصبين لهم وظائف ادارية ، وخاصة في دواوين الخراج ، وفي جباية الخراج ، ولما سادت اللغة العربية في الدواوين وميادين العلم بعد التعريب ، تيسر المجال لنقل افكارهم الى اللغة العربية ، وتوفرت الفرصة لترجمة الكتاب

الساسانية الى العربية ، ولعل بعض هذه الكتب ترجمت بتشجيع من أصحاب السلطة العرب . ومن المؤكد ان العرب لم يعرقلوا عملية الترجمة من الفارسية ، وهي العملية التي لابد ان المتعصبين للساسانيين كانوا يشجعونها .

تراث الساسانيين وكتبهم

استوعب ابن النديم في كتابه «الفهرست» أسماء ما ألف في العربية أو نقل اليها حتى سنة ٣٧٧ هـ . وأورد أيضا أسماء النقلة والمترجمين ، ولم يغفل الا القليل . لذلك فان الاعتماد عليه في دراسة التاليف والنقل كفيل بان يوصل الى نتائج سليمة .

ذكر ابن النديم أسماء النقلة من الفارسية وما نقلوه من كتب ويتجلى مما ذكره ان حركة ترجمة الكتب الساسانية الى العربية ظهرت منذ أواخر العصر الأموي حيث عاش أقدم مترجمين وهما جبلة بن سالم مولى هشام بن عبدالملك ، وعبدالله بن المقفع . وعدد ابن النديم خمسة عشر شخصا (مقابل خمسة واربعين مترجما من الاغريقيه) (الفهرست ٣٠٥) لم يذكر ابن النديم لكثير من النقلة الذين ذكر اسماءهم اكثر من كتاب واحد ، كما ان الكتب التي ذكر انها نقلت من الفارسية قليلة العدد ، ومعظمها تبحث في التاريخ ونظم الادارة . ولم يذكر اسماء الكتب التي نقلها بعض من ذكرهم من النقلة ، ومن هؤلاء الذين ذكر اسماء الكتب التي نقلوها موسى ويوسف ابني خالد اللذين ينقلان لداوود بن عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي (٣٠٥) وكذلك هشام بن القاسم ، والحسن بن سهل بن نوبخت ، علما بان عددا من آل نوبخت كانوا يرعون الترجمة من الاغريقية .

ان اشهر كتاب نقل من الفارسية الى العربية هو كتاب «خداي نامة» وكانت منه في زمن حمزة الاصفهاني (ت ٢٣٦) نسخ مختلفة حتى انه لم يظفر بنسختين متفقتين (تاريخ سني ملوك الأرض

والانبياء ٢٠) ويذكر ابن النديم ان مما نقله ابن المقفع من كتب الفرس «كتاب خداي نامة في السير» (١٣٢) اسحاق بن يزيد نقل من الفارسي الى العربي : فمما نقل كتاب سيرة الفرس المعروفة بخداد (خداي ثامة (٣٠٥) ويذكر حمزة الاصفهاني كتاب (سير ملوك الفرس) ومنه نسخ من نقل ابن المقفع ، ومحمد بن الجهم البرمكي ، وزادوية بن شاهوية الاصفهاني بالاضافة الى نسخة مستخرجة من خزانة المأمون (١٤) ويذكر ايضا ان هشام بن القاسم ومحمد بن مطيار الاصفهاني ، وبهرام بن مردانشاه موبذ البصرة ترجموا تاريخ ملوك بني ساسان (١٤) ، ومما يؤيد قيام الثلاثة الاخيرين بترجمة كتاب خداي نامة قول البيروني ان ابا على محمد بن احمد البلخي الشاعر ذكر في الشاهنامة معلومات عن بدو الانسان رغم انه صحح اخباره فيها «من كتاب سير الملوك لعبدالله بن المقفع ، والذي لمحمد بن الجهم البرمكي» والذي لهشام بن القاسم ، والذي لبهرام بن مهران الاصفهاني ثم قابل ذلك بما اورده بهرام الهروس المجوسي (الاثار الباقية ٩٩) .

يتبين مما ذكرناه اعلاه ان كتاب خداي نامة ، وهو تاريخ أوسير ملوك الفرس ، كانت منه في القرن الرابع الهجري عدة نسخ مختلفة ، وانه تُرجم عدة ترجمات ، قام بها رجال معروفون بتضلعهم بالفارسية ، ولم تصلنا نسخة كاملة من الكتاب ولكن وصلتنا منه نقول واسعة رواها عدد من المؤرخين العرب ، وخاصة الطبري في كتابه «تاريخ الامم والملوك» والثعالبي في «غرر السير» واليعقوبي وحمزة الاصفهاني ، والواقع ان هذه النقول هي المعتمد الرئيسي لمن كتب عن الساسانيين ، وقد قام المستشرق ثيودور نولده كه بترجمة ما اورده الطبري الى الالمانية مع تعليقات وافية هي ثمرة مقارنة معلوماته بما أورده في كتب الامم الاخرى ، ككتب الروم والارمن .

ووجد نولده كه ان معلومات خداي نامة صحيحة ، وخالية من الاساطير ، وهذا الكتاب يبحث في التاريخ السياسي ، وسنتحدث فيما

بعد عن الصورة المستخلصة منه عن ملوكهم ، ولكننا نقتصر هنا على القول بانه الكتاب الوحيد الذي وصلنا عن تاريخهم السياسي .

ذكر ابن النديم ان مما نقله ابن المقفع الى العربية كتاب كليلة ودمنه وخداي نامه ، وآيين نامة وكتاب مزدك ، وكتاب التاج في سيرة انو شروان (١٣٢) وقد تحدثنا عن كتاب خداينامه ، اما كليلة ودمنه فهو كتاب هندي ترجم الى الفارسية في زمن انوشروان ثم ترجمه ابن المقفع الى العربية واضاف اليه بعض الاضافات ، ولذلك فان هذا الكتاب لا يعتبر فارسيا .

واما الايين نامة فقد ذكرها ابن النديم من الكتب التي الفها الفرس في السير والأسمار الصحيحة التي لملوكهم (٣٦٤) وذكر المسعودي من كتب الفرس خداي نامة وايين نامة (التنبيه والاشراف ٩٢) والايين هي القواعد التعليمية في فن من الفنون كالايتكيت او التدريب العسكري والحرب ، وقد اشارت اليه كتب كثيرة (انظر كتاب محمد محمدي : الترجمة والنقل عن الفارسية ص ٣٢٠ فما بعد) وذكر ابن النديم آيين الرمي لبهرام جور ، وآيين الضرب بالصوالجة للفرس ، و «تعبئة الحروب واداب الاساورة (٣٧٦)» وادب الحروب وفتح الحصون ترجمته مما عمل لاردشير بن بابك (٣٧٧) .

واما كتاب «التاج في سيرة انوشروان» الذي ذكر ابن النديم ان ابن المقفع نقله الى العربية ، فقد نقل منه ابن قتيبة في عيون الاخبار نصوصا غير قليلة معظمها تتعلق بابرويز كما نقل عنه محمد بن يوسف العامري في كتاب السعادة والاسعاد ، وقام الاستاذ محمدي بدراسة مستوعبة لكتاب التاج في سيرة انو شروان ، وعن الايين واورد في دراسته ماذكرته الكتب العربية من اقوال وما اقتطفته عنه من نصوص ، وتوضح هذه الدراسة ان هذين الكتابين يبحثان عن بعض الاعمال السياسية ، وعن نظم الادارة وفيها كثير من الحكميات والنصائح عن السلوك الشخصي او ادارة الدولة .

ومن الكتب التي ذكر ابن النديم انها نقلت من الفارسية كتاب «عهد

اردشير» وقد ترجمه البلاذرى (١٢٦) ونقل مسكوية في كتابه «تجارب الامم» ونشره الدكتور احسان عباس حديثا .

وذكر ابن النديم ان من كتب الفرس «الكارنامج في سيرة انوشروان»(٣٦٤) ، كما ذكر كتب فارسية اخرى باسم «انوشروان» و «بهرام ونرسي» و «شهريزاد مع ابرويز» و «دارا والصنم الذهب» ، كما ذكر كتابين قال ان جبلة بن سالم ترجمها ، وهما كتاب «رستم واسفنديار» و «بهرام شوش» (٣٦٤)

وذكر المسعودي ان «لاردشير بن بابك كتاب الكرنامج فيه ذكر اخباره وحروبه وسيره في الأرض وسيرته» (مروج الذهب ١ / ٢٧١) وذكر ايضاً وجدت عند بعض اهل البيوتات المشرفة من الفرس كتابا عظيما يشتمل على علوم كثيرة من علومهم واخبار ملوكهم وابنيتهم وسياساتهم لم اجدها من شيء من كتب الفرس كخداي نامة ، وآيين نامة ، وكهنامة ، وكان تاريخ هذا الكتاب انه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادي الآخر سنة ١١٣ ونقل لهشام بن عبد الملك بن مروان من الفارسية الى العربية (التنبية والاشراف ٩٢)

وذكر المسعودي ان عمر المعروف بالكسروي ممن اشتهر بعلم فارس واخبارها (مروج الذهب ١ / ٢٤٩) وان له كتابا في اخبار الفرس يصف طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف واخبارهم (١ / ٢٥٨) ، ونقل المسعودي عن هذا الكتاب نصوصا برواية ابي عبيدة وهي تتعلق بتنظيمات الفرس الاجتماعية والادارية ، ولاتتطرق الى نشاطهم في العلوم .

ان السرد الواسع الذي عرضناه اعلاه منحصر بما يتعلق بالتاريخ والجوانب السياسية والادارية وكلها مؤلفات شجع الملوك الساسانيين على الكتابة فيها ، وهي تظهر عنايتهم بهذه الجوانب حسب .

وفي ميدان العلوم الصرفة ذكر ابن النديم ، اثنان من النقلة المعروف عنهما عنايتهما بالعلوم ، هما عمر بن الفرخان ، والنوبختيون (٣٠٥) غير ان ابن النديم لم يذكر ترجمة كل منهما من الفارسية من العلوم ،

وانما قال عن عمر بن الفرخان انه فسر المجسطي الذي نقله اليه ابن البطريق وانه الف كتابي «المحاسن» و «اتفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط الكواكب» وذكر ايضا ان ابنه محمد بن عمر كتب في المواليد والاصطرلاب وتحاويل السنين» (٣٣٢) .

وذكر ابن النديم من بني نوبخت ابو سهل الفضل بن نوبخت كان في خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وله نقل من الفارسي الى العربي ، معولة في علمه على كتب الفرس ، له من الكتب النهمطان في المواليد ، والفأل النجومي ، والمواليد ، وتحويل سني المواليد ، والمدخل ، والتشبيه ، والتمثيل ، والمنتحل من اقاويل المنجمين في الاخبار والمسائل والمواليد (٣٣٣) .

ونقل ابن النديم عن كتاب النهمطان نصا عن خزن علوم الفرس في جب (٢٩٩) وفي كتب الفرس الدينية معلومات علمية تتعلق بالفلك والطب . والكتابين الدينيين الرئيسيين عندهم هما الافستا لزرادشت والشابرقان لماني ، فاما الافستا فهو الكتاب المقدس للزرادشتيين ، ويرجع تاريخه الى زمن زرادشت (حوالي سنة ٥٧٠ ق م) وكان دينه الدين الرسمي ، ولما ولي الساسانيون الحكم حرص اردشير بن بابك على العناية بالافستا وامرتنسر بجمع ماتبقى منه ، ثم ادخل فيه سابور الاول معلومات في الطب والنجوم وماوراء الطبيعة مما كان معروفا عند اهل الهند والاغريق وغيرها من البلاد . وقد ادخلت على الافستا عدة تعديلات حتى استقر بشكل نهائي في زمن سابور الثاني حيث اصبح مقسما الى ٢١ كتابا ، ثم حذف كثير منه في العهود الاسلامية .

كانت الافستا نوعا من دائرة معارف تحوي مختلف العلوم بما في ذلك علو المبدأ والمعاد . واساطير الاولين ، والنجوم وعلوم الطبيعة ، والتشريع والحكمة العلمية (انظر كتاب ايران في العهد الساساني كرستنن ١٣٠ ـ ١٣٢ وكذلك تاريخ علم الفلك لناللينو ١٩٠) .

وفي الافستا فصول عن دورة الدنيا وعن السنة والتقاويم

(كرستنسن ١٣٦ ـ ١٦٠) وفيها ايضا قوائم باسماء الملوك نقلها البيروني ، (الاثار الباقية ١١٤ ـ ١٢٣) واعتمدَ في نقلها على كتاب تواريخ كبار الامم ، من مضى منهم ومن غبر لحمزة الاصفهاني الذي صحح القوائم على نسخة الموبذ (الاثار الباقية ١١٤ ـ ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٣١) .

اما كتاب الشاهبورقان فهو من اهم كتب المانوية ، وكان يحتوي على باب انحلال السماعين ، باب انحلال المجتبين ، باب انحلال الخطاة (ابن النديم ٣٩٩) وهو من بين كتب الفرس معول (الاشارة الباقية ١١٨) وفيه فصول عن الاعياد ومواعيدها وكان الكتاب مكتوباً بحروف سريانية ، الامر الذي ساعد على انتشاره ، وقد كشفت بعض اجزاء الكتاب في ترفان في اواسط اسيا (كرستنسن ١٨٨) .

يتجلى من السرد المسهب الذي قدمناه اعلاه :

(١) لم تصلنا كتب مكتوبة في زمن حكم الساسانيين وانما وصلنا من ذلك الزمن عدد قليل من المدونات المنقوشة على نصب واحجار ، مثل نقش بايكولي ، والنقش المنسوب الى سابور ، ووصلنا ايضا مقدار كبير من مسكوكات الدراهم الفضية لعدد كبير من ملوكهم .

(٢) لم يتعرض التراث الفكري الساساني الى اضطهاد ايجابي بعد تكون واستقرار الدولة العربية الكبرى ، وانما تمتع المتعصبون له بحرية واسعة ، واشغل بعضهم مناصب في الادارة .

(٣) ان الكتب التي وصلتنا من التراث الفارسي هي مجموعة مؤلفات ترجع الى ازمنة متتابعة تبدأ من زمن اردشير مؤسس الدولة الساسانية ، وتمتد الى اوائل الفتح الاسلامي فهي مجموعة متراكمة ، وهي حصيلة انتاج استمرار اربعة قرون ، وفي هذا يقول الجاحظ انها «حكاية الثاني علم الاول ، وزيادة الثالث من علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم (البيان والتبيين ٣ / ٢٨) .

(٤) بدأت ترجمة كتب التراث الفارسي الى العربية منذ اواخـر العصر الاموي (ابن المقفع وسـالم مـولى هشـام) ثم توسـعت في اوائل العصر العباسي ، وتم بعضها برعاية بعض اصحاب السلطة .

(٥) اكثر الكتب المترجمة تتصل بملوك الفرس ، والقسط الاكبر منهـا في التاريخ والنظم ، او التقارير عن العهـود والاحـوال الادارية ، وهي ضيقة غير متصلة بحياة الشعب وافكاره .

(٦) معظم المترجمات ، وخاصة كتب العهود ، صغيرة الحجم ، ضـاع اصلها الفارسي ، ووصلتنا مترجمة باسلوب عربي رصين ، وترجع شهرتها ورواجها الى رصانة اسلوبها العربي اكثر مما ترجع الى ما فيها من معلومات وآراء . ولا نعلم مدى دقـة الترجمـة ، ومـن المحتمل ان بعضها مختلق ومن مبتدعات العرب ، وفي هـذا يقـول الجاحظ «ونحن لا نعلم ان الرسائل التي بيد الناس انها صحيحة وغير مصنوعة ، وقديمة غير مولودة» ، وكان مثل ابن المقفع وسهل بن هـارون وابي عبيد الله ، وعبد الحميد وغيلان يسـتطيعوا ان يولدوا مثل تلك الرسـائل ، ويضـعوا امثال تلك السـير (البيان والتبيين ٣ / ٢٩) .

(٧) ان عدد المترجمين مـن الفـارسية قليل ، وعدد الكتب المترجمـة محدودة ، ولا يقارن في قلته مع كثرة ما ترجم من الاغريقية ، كمـا ان مواضيعها محدودة جدا وغير منوعة ولا تتصل بالمعـارف التي عني العرب بدراستها من فقة وحديث وتفسير وعلوم لغـة . وقليل منها متصل بالعلوم بما في ذلك الرياضـيات والطبيعيات والطـب والادوية ، علما بان مدرسة جند يسابور كانت سريانية ومـوقعها بعيد عن عاصمة الساسانيين .

الملوك الساسانيون :

اعتمد العرب في كتابة تاريخ الساسانيين على كتاب خـداي نامـة ،

وهــو كتاب الف للبلاط الســاساني واقتصر على ذكر الجــوانب الايجابية واغفل ذكر كثير من العيوب والنقائص وخلا من النقد ، فهو كتاب ميال للساسانيين وغير متحيز ضدهم ، ولا يطعن في هذا الكتاب الاختلافــات بين نســخه ، لان هـــذه دليل على كثرة تداوله ، ثم ان الاختلافات هي في بعض تفاصيل الفرعيات ، وليس في الصورة العامة الاجمالية ، وافاد العرب ايضا من كتب العهود والآيينات التي تكمــل وتوضح خداي نامة ولا تناقضه . يتجلى من خداي نامــة ان الحــكم انحصر في الدولة الساسانية بأسرة واحدة تحدرت من ساسان اردشير مؤسس الدولة وتعاقب على ولاية العرش فيهــا خمســة وثلاثون ملكاً وملكة ليس فيهم الا رجل واحد من خارج الاسرة هو بهرام جــوسين الذي اعتبر مغتصبا ، غير ان الملوك الاقوياء البارزون لم يزيدوا على ثمانية وهم اردشير مؤسس الاسرة ، وابنه ســابور الاول ، وســابور الثاني ذو الاكتاف ، وفيروز ، وقباذ ، وانوشروان ، وابرويز ويمكن ان يضاف اليهم آخرهم يزدجرد . وقــد عكس الطبري هــذه الصــورة في مقدار ما كتبه عن كل ملك ســاساني ، علمــا بان كتابته معتمــدة على خداي نامة وهي اوسع ما وصلنا ، فقد خص كلا من الملوك الثمــانية بعدة صفحات وخصص اربعة آخرين بصفحة واحــدة ، وكتب عن كل من ستة عشر ملكا بضعة اسطر لا تتجاوز العشرة واقتصر على مجرد ذكر اسماء بعضهم ، ولا ريب في ان قلة المعلومــات التي اوردهــا عن الاخرين راجعة الى ضعف دورهم وقلة اهميتهم .

ولم يكن افراد الاسرة الساسانية متمــاسكون ، فقــد قــام كثير مــن ملوكهم بقتل اخوتهم ، والتضييق على بقية افــراد الاسرة لاســتقرار حكمه وتخلصاً من منافسيه ، كما ان عددا غير قليل من ملوكهــم عزل وقتل على اثر ثورة عارمة قادها قــواد مــن الجيش او افــراد مــن الاسرة . والواقع انه قلما يرد ذكر احد من افراد الاسرة في زمــن اي ملك وكلما يذكر لغير الملك وولي عهده رجــل مــن الاسرة الســاسانية اشغل منصبا رئيسا او قاد جيشا او كان له نفوذ قــوي فــالقوة للملك

عند اشغاله للعرش ، فاذا زال بعزل او موت ، فان القوة تذهب الى من يتولى الملك الذي يعمل بدوره على تثبيت حكمه بالتضييق على الاخرين من افراد الاسرة فالحكم في الدولة فردي محصور بالاسرة ، ولكنه لم يثبت مكانة الاسرة ، فلما قضي العرب على يزدجرد الحاكم لم يكن من الاسرة من يعمل لاعادة مجدها لان الملوك الساسانيين هم الذين «قلبوا» الاسرة وازالوا قوتها ، ولذلك اقتصر المتعصبون للساسانيين في العهد الاسلامي على التغني بمجد حكمهم دون محاولة اسناد فرد منهم لاستعادة الحكم .

ركائز حكم الملك الساساني :

تبني الملوك الساسانيون الدين الزرادشتي وجعلوه الدين الرسمي للدولة ، وجعلوا لرؤسائه (الموابذة والمهرابدة) المكانة العظمى في الدولة غير ان الزرادشتية دين جامد يخضع لرجال دين متزمتين يستخدمون قوتهم من اسناد الملك لهم ، وليس من حيويتهم وابداعهم وافكارهم ، كما ان طقوسه المرهقة ، وافكاره المعقدة لا تجلب الناس اليه ، وادى هذا الى عزلة الاسرة الساسانية عن الناس ، وجلبت لهم عداوة ، او عدم تاييد معتنقي الاديان الاخرى في دولتهم كالمانوية ، والمزدكية اللتين انتشرتا في الاطراف الشرقية من الدولة ، والمسيحية التي انتشرت في العراق ، ولما قضى العرب على عرش الاكاسرة لم تكن للزرادشتية قوة تستطيع جمع الناس لاعادة الساسانيين ، فانكمش الزرادشتيون الى اماكن متفرقة حول بيوتهم ، واقتصروا على قراءة كتبهم الدينية والاحتفاظ ببعض الكتب التي تبحث في تاريخ الساسانيين .

واستفاد الساسانيون في بقاء دولتهم مدة اربعة قرون من الظروف الخارجية التي كانت قائمة خلال هذه الفترة الطويلة ، حيث ان القوى الرئيسية المناوئة لها لم تكن في الوضع الذي يمكنها من القضاء على

الساسانيين ، فالدولة الرومانية كان مركزها روما ، وهي بعيدة جدا عن مركز الدولة الساسانية ، وحكماها معنيون بالسيطرة على اوربا وعلى اقاليم البحر المتوسط ، وان الحملات القليلة التي قامت بها ضد الساسانيين لم تحشد في اي منها كافة طاقاتها للقضاء على الساسانيين ، ورضى الرومان منذ ايام كراسوس وبومبي بالفرات حدا غربيا لدولتهم ، ولما جاءت الدولة البيزنطية وريثة للرومان ، وكانت مثقلة بالمشاكل التي تعيقها عن القيام بعمل حاسم للقضاء على الدولة الساسانية ، والواقع ان الساسانيين ادركوا طاقاتهم الحدودة فلم يحاولوا بدورهم تجاوز نهر الفرات الا في حملات قصيرة كالتي حدثت زمن انوشروان وابرويز .

اما الاطراف الشرقية للدولة فقد كانت فيها قوى هددت دولة الساسانيين وتوغلت عدة مرات في بلادهم ، ولكن هذه القوى كانت بدوا يتسمون بالقدرة على القتال بالتحرك الشعبي الواسع ، ولكن كانت تعوزهم فكرة انشاء دولة مستقرة لتنظيم القتال وتدعيمه لتحقيق اغراض اوسع ، فكان تقدمهم مجرد غزوات عنيفة ولكن اخطارها وقتية .

اعتمد الملوك الساسانيون في الاحتفاظ بملكهم على جيش ملكي متقن التدريب ومرتبط بالحكام برابطة المصلحة المادية بما كان يدفع من رواتب وما يغدق على قواده من امتيازات ، غير ان هذا الجيش «الشاهنشاهي» كان محدود العدد ، ولا يرتبط بالحكام برابطة الدم ، وانما تؤخذ زهرته وهم (الفرسان الاساورة) من مختلف الاقاليم اما الرجالة والمشاة فمن الفلاحين ، وقد امن هذا الجيش للملك بقاء عرشه والسيطرة على العاصمة وعلى العراق وبعض اقاليم الهضبة الايرانية ، وان كان قواده قاموا بعزل بعض الملوك وكان له صوت في اختيار الافراد للعرش وخاصة في اواخر سني الدولة الساسانية .

وكان لكل من اهل البيوتات الستة جيش خاص به ينفق عليه رئيس ذلك البيت وهذا الجيش يأتمر بأمر ذلك الرئيس ، ولا يأتمر بأمر

الملك ، فاذا حدث ما يستدعي استخدام ذلك الجيش ، فـان الملك يطلب من رئيس البيت ان يقدم جيشه ، والراجح ان هذا الجيش يأتمر بأمر رئيسه قبل ان يأتمر بأمر القائد العام . ولا ريب في ان هـذه الجيوش المحلية كانت تحد سلطات الملك ، غير انها افادت في الدفـاع عن بعض المناطق في اطـراف الدولة ، فعندمـا انتصرت الجيوش العـربية على جيش الملك في القـادسية وجلولاء ، قـام الهـرمزان وهـو رئيس بيت سورين المسيطر في الاحواز ، بالدفاع عن الاحواز مدة سنتين خـاض خلالها العرب معه عدة معارك الى ان اقتنع بعدم جـدوى الاسـتمرار بقتال العرب ، فاجرى معهم مفاوضة مستقلة اقرها الخليفة عمـر بن الخطاب ، وتوقف القتال واقام الهرمزان في المدينة ، اما جيشـه وكان يبلغ حوالي الفي مقاتل فقد انتقل الى البصرة واقام فيهـا ، وعومـل كالمقاتلة العرب فكان يدفع له العطاء ويقاتل مع العرب (انظـر عنهـم كتابي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة) .

وفي الاطراف الشمالية كان يقيم الصـبهبذ في طبرسـتان حيث تابع مقاومة العرب عند انهيار الجيش الامبراطوري وهروب الملك يزدجرد بعد معركة نهاوند . وظل صبهبذ يقاوم بجيشه العرب الى ايام هارون الرشـيد حيث اسـتطاعت الجيوش العـربية اجباره على الخضـوع للعرب .

وفي الاطراف الغربية من بحر قزوين كان يقيم قارن وهو رئيس احد البيوتات الستة ، وظل يقاتل بجيشه العرب بعد معـركة نهـاوند ، ولم يخضع الا بعد قتال طويل ، ثم اعلن بابك وهـو حفيد قـارن الكبير ، التمرد على الخلافة في زمن المأمون ، وضـم اليه عددا مـن المحمـرة والخرمية وظل يقاوم الجيوش التي ارسلت لاخضاعه مدة ثلاثين سنة بذل فيها الخليفة جهوداً كبيرة واموالا طائلة وحشـد جندا كبيرا حتى استطاع اخضاعه .

وكانت مملكة الملك السـاساني تضـم حـوالي ٢٥ ملكا لكل منهـم استقلال اداري وسلطات واسعة . ومن اشـهر هؤلاء ملوك المناذرة في

الحيرة الذين كان لهم بلاط وجيش خاص ياتمر بامرتهم ، ورجاله من العرب ، ولا يقاتل مع الملك الساساني الا بامر ملكه . ولعل بقية الملوك كانت لهم نفس الامتيازات .

ويتبين من كل ما تقدم ان جند المملكة مكونين من عدة جيوش يخضع كل منها حاكم خاص ياتمر بامره . لا بامر الملك ، الامر الذي يحد من سلطان «شاهنشاه» .

يتضح من العرض الذي قدمناه للقوى التي استند عليها الملوك الساسانيون لتثبيت عرشهم وادامة حكمهم ان دولتهم كانت فارسية (اي من اقليم فارس) ، ساسانية (اي ان العرش منحصر بافراد من اسرة ساسان) زرادشتية ، عسكرية طبقية ، وان هذه القوى مكنت الساسانيين من البقاء في الحكم واسبغت عليهم فخفخة ظاهرية تستر تحتها عناصر من التخلخل والضعف ، فحصر الملك بالاسرة الساسانية ، اقتصر اثره على تقوية الجالس على العرش دون بقية افراد الاسرة الذين كانوا يلقون التضييق والحصر مما اضعف كيانهم وانقص نفوذهم ، فلما قتل الملك الاخير لم يكن قد بقي من الاسرة رجال بارزون يتعلق بهم انصار الساسانيين للعمل على استعادة ملك الاسرة .

ثم ان الملوك الساسانيين بتبنيهم الديانة الزرادشتية الجامدة ، عزلوا انفسهم عن كثير من رعيتهم ممن كانوا يدينون باديان اخرى ، واضطهدوا بعضها كالمانوية والمزدكية ، فلما نشطت هذه الفرق بعد مجيء الاسلام وحاول بعض الجماعات من اتباعها اتخاذ نزعة استقلالية ، لم ينادوا بالعمل على استعادة المجد الساساني الذي كان منعزلا عنهم ومضطهداً لكثير منهم . وعندما انتشر اعتقاد كثير من الفرق بالمنقذ المنتظر كالمهدي عند الشيعة ، والقحطاني عند القحطانية ، والسفياني عند انصار الامويين ، لم يظهر من يدعو الى «الساساني المنتظر» بل حتى الزرادشتين الذين لقوا رعاية الساسانيين كانوا ينتظرون خروج رجل اسمه سومين (الحيوان

للجاحظ ٦/ ٤٧٧) قالوا انه سيجيء على بقرة ذات قــرون (الحيوان ٧ ــ ٢٤٦) ولم يقولوا بعودة ساساني منتظر .

والواقع ان اعنف الحركات الايرانية المتحدية للاسلام ودولته جاءت من الزنادقة ، وهم في جوهرهم مانوية ، والمحمرة وهــم في اســاسهم مزدكية ، وكلا الفرقتين كانتا مضطهدين في زمــن الســاسانيين ، وان انصارها لم يكونوا مــن اقليم فـــارس ، مــوطن الســاسانيين والزرادشتية ، وانما كانوا من اقاليم لم تكن لها مكانة بارزة في العصر الساساني ، ولذلك فــان هــذه الحــركات لم تتبنى اســتعادة ملك آل ساسان . ولم تنشط في فارس .

الطبقات الاجتماعية :

سار الساسانيون على نظام طبقي جامد كانت له اصــول مــوغلة في القدم ، ثم تعرض الى بعض التطورات ، فلمــا وســع اردشــير الدولة واستقر ملكه جعل الناس على اقســام اربعــة وحصر كل طبقــة على قسمتها : .

فالاولى الاساورة من ابناء الملوك .

والقسم الثاني النساك وسدنه بيوت النيران .

والقسم الثالث : الاطباء والكتاب والمنجمون .

والقسم الرابع : الزراع والمهان واضرابهم (التاج ٢٥ ، تحقيق ما للهند ٧٦) .

وقد رافقت هذه التقسيمات الاربعــة الرئيســة تقســيمات فــرعية اخرى ، فيذكر كتاب التاج ان اردشــير رتب الندمــاء وجعلهــم ثلاث طبقــات : الاولى للاســاورة وابناء الملوك والثانية لبطــانته وندمــائه ومحدثيه من اهل الشرف والعلم ، والثالثة من المضحكين واهل الهزل

والبطالة ، وكانوا يقفون في محضر الملك وبين كل طبقة واخرى عشرة اذرع (التاج ٢٣ ـ ٢٤) وتسري هذه التقسيمات على اهل الموسيقى ، فكانت طبقتها الاولى اهل الحذاقة بالموسيقيات والاغاني ، والثانية اصحاب الموسيقيات والثالثة اصحاب الونج والمعازف والطنابير (التاج ٢٥ ـ ٢٦) .

وذكر المسعودي انه وصف في كتابه «اخبار الزمان» وضع وانساب هذه الطبقات ثم قال «ووصفنا الابيات الثلاثة التي شرفها كسرى على سائر من سواد العراق ، وهم مشهورون في اهل السواد الى وقتنا هذا ، واشراف السواد بعد الابيات الثلاثة من الشهارجة الذين شرفهم ايرج وجعلهم اشراف السواد ، ثم الطبقة الثانية بعد الشهارجة وهم الدهاقين وهم ولد وهكرت بن فردال بن سيامك بن نرسى بن كيومرت الملك ، وكان وهكرت اول من تدهقن ، والدهاقين تتفرع الى مراتب خمس ، ومن ذكرنا كانت ملابسهم تختلف على قدر مراتبهم ، والاكثر من ابناء الملوك واعقاب الطبقات الاربع بسواد العراق الى الان يتدارسون انسابهم ويحفظون حسوبهم كحفظ العرب من قحطان ونزار والاخلاق فيما ذكرنا عند ذوي الدراية بما وصفنا (مروج الذهب ١/ ٣١٣/ ٣١٤) .

ان هذه التقسيمات الكبرى التي ذكرناها تتفرغ الى تقسيمات جزئية اخرى ، ويذكر المسعودي انها كانت مدونة في الكتب ، ويقول في ذلك «وللفرس كتاب يقال له كهنامة فيه مراتب مملكة فارس ، ولها ستمائة مرتبة على حسب ترتيبهم لها وهذا الكتاب من جملة آيين نامه ، تفسير آيين نامه كتاب الرسوم ، وهو عظيم في الالوف من الاوراق ، لا يكاد يوجد الا عند الموابذة وغيرهم من ذوي الرياسات» ويقول ايضاً «ورايت بمدينة اصطخر في سنة ٣٠٣ عند بعض اهل البيوتات المشرفة من الفرس كتابا عظيما يشمل على علوم كثيرة من علومهم واخبار ملوكهم وابنيتهم وسياساتهم لم اجدها في شيء من كتب الفرس كخداي نامه وآيين نامه وكهنامه (التنبيه والاشراف

٩١ ـ ٢) (وانظر عن الطبقـات عند السـاسانيين الفصـل الذي كتبه كرستن في كتابه ايران في عهد الساسانيين ، وكذلك مقال بنفينسـت في المجلة الآسيوية سنة ١٩٣٤) والمقال الذي كتبه موروني في مجلة ايران ١٩٧٦ عن بقايا الاشراف الساسانيين في العراق ، وقـد اعددت بحثا مفصلا في الموضوع) .

يختلف النظام الساساني الطبقي الذي اشرنا الى معـالمه العـامة ، عن النظام الاغريقي والروماني المعاصر الذي كان يقوم على التنظيم المدني ، فيميز بين المدن والقرى ويعطي لكل منها حقـوقا وامتيازات خاصة ، ويبيح لبعضها انشاء مجالس شيوخ ومجالس شعب (انظر في ذلك جوني : المدينة الاغريقية) والواقع ان العرب عندمـا فتحـوا بلاد الشام عقدوا عدة معاهدات مع عدد من المدن . اما في العـراق والمشرق فلم تكن امامهم مدن بالمعنى القانوني ، وانما نظام يرأسه الملك ، فلما زال الملك انهار النظام ، علما ان الطبقات الدنيا كانت معزولة ومرهقة ولا تشعر برابط يربطها مع الطبقات العليا ، فلم تحرص على الدفـاع عن ذلك النظام الجامد المنعزل .

يفترض التنظيم الطبقي الذي حرص الساسانيون على مراعاته ، ان سكان البلاد التي حكموها كونوا وحدة متجـانسة ومتمـاسكة ، وان التقسيم الطبقي الذي وصفوه يهدف تنظيم علاقـاتهم بالملك ، ويتجلى من التقسيم الطبقية التي ذكرت المصـادر انهـم وضـعوها ، هـو ان الطبقات العليا كانت محدودة العدد ، قريبة من البلاط ، اما الطبقـات الدنيا فكانت هي الاكثر عدداً ، وهي تظهر استناد الملك على القلة مـن السكان ، وعزلته عن الاكثرية الغالبة من السكان .

غير ان الوحدة المفترضة في التقسيم الطبقي كانت وهمية غير قائمة ولا اساس لها ، والواقع ان الاراضي الواسعة التي امتد اليها سلطان الساسانيين كانت فيها تنوعات جغرافية وجنسـية وثقـافية ، فـاما المتنوعات الجغرافية والمهنية فظاهرة من شمول دولتهم سهولا خصبة يمتهن اهلها الزراعة كالعراق ، وفيهـا مناطـق صـحراوية قـاحلة ،

وجبال وعرة جرداء يمتهن اهلهـا الرعي ، وفيهـا عدد مـن الوديان الخصبة والبقاع التي تتوفر فيها اسباب ظهور المدن وما يرافقها مـن صناعات وتجارة ، واذا اخذنا بنظر الاعتبار سوء احوال المواصلات ، وقلة التنقل ، وحرص الساسانيين على تجميد المجتمـع ، ادركنا الاثر الكبير لهذه العوامل الجغرافية في تعميق الفـروق بين السـكان تبعـا لحرفهم وما يتصل بذلك من احـوالهم المعـاشية وحياتهـم العـادية ونظمهم الاجتماعية ، ومشـاغلهم الفـكرية ، ولعـل تنوع الاحـوال الجغرافية ، كان من عوامل ظهور مناطـق تمتع حـكامها باسـتقلال واسع ومارسوا سلطات ادارية في الحكم على مناطقهم التي لكل منها سمة جغرافية محددة ومتميزة .

اللغة :

ان ابرز مظهر لانقسام السكان هو المظهـر الثقـافي الذي يتجلى في اللغة وما يتصل بها من اصول . وقد اشارت الكتب الى تعدد اللغـات الشائعة في دولة الساسانيين ومنها الفارسية الاولى التي وضعت فيها الافستاقي في زمن زرادشت ، ويقول المسـعودي «ولا يعلم احـد اليوم معنى تلك اللغة وانما كاستاذ نقل الى هذه الفارسية شيء من السـورة فهي في ايديهم يقرأونها في صلواتهم كاسـتاذ وجترشـت وبانيسـت ، وهادوخت وغيرها من السور» (التنبهيه (والاشراف ٨٠) .

نقل ابن النديم عن ابن المقفع قـوله «لغـات الفـارسية» الفهلوية ، والدرية ، والفارسية ، والخوزية ، والسريانية . فأما الفهلوية فمنسوب الى فهله ، اسم يقع على خمسة بلدان وهي اصفهان والري وهمـدان وماه نهاوند واذربيجان .

واما الدرية فلغة مـدن المدائن وبهـا يتكلم مـن يباب الملك ، وهـي منسوبة الى حاضرة الباب ، والغالب عليها من لغـة اهـل خـراسان والمشرق لغة اهل بلخ .

واما الفارسية فيتكلم بها الموابذة والعلماء واشباههم ، وهي لغة اهل فارس .

واما الخوزية فبها كان يتكلم الملوك والاشراف في الخلوة ومواضع اللعب واللذة ومع الحاشية .

واما السريانية فكان يتكلم بها اهل السواد . والمكاتبة في نوع من اللغة بالسرياني فارس (ابن النديم ١٥ وانظر حمزة الاصفهاني التنبيه الى حدوث التصحيف ٦٧ ـ ٦٩) .

ولا ريب في ان اختلاف اللغات يعكس اختلافات عرقية وثقافية ليس هنا مكان بحثها . ويقول الاصطخري ان اهل اقليم فارس «لهم ثلاثة السنة الفارسية التي يتكلمون بها ، وجميع اهل (اقليم) فارس يتكلمون بلغة واحدة يفهم بعضهم عن بعض الا الفاظاً تختلف لا تستعجم على عامتهم ، ولسانهم الذي به كتب العجم وايامهم ومكاتبات المجوس بينهم هو الفلهوية التي تحتاج الى تفسير حتى يعرفها الفرس ، ولسان العربية التي بها مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس (المسالك ١٣٧) ويقول المقدسي ان لسان اهل خراسان الدرية (احسن التقاسيم ٣٣٥) وقد اخذت اللغة الدرية تسود الهضبة الايرانية بعد الفتح العربي ، انظر فراى : تراث فارس) .

واذا تركنا التقسيمات الادارية باعتبارها وضعت لاغراض الادارة وراعت امور الجباية والامن ، فانه يمكن تمييز اربع اقسام ارضية هي : فارس ، والجبال وخراسان والعراق .

فارس :

فاما فارس فهو الاقليم الواسع الذي يمتد على شواطيء الخليج العربي ، وارضه جبلية ومناخه صحراوي وزراعته قليلة محصورة في الوديان ، وحيث تتوفر الينابيع ، وفيه مناجم حديد ونحاس ، وطرقه وعرة ، ومواصلاته رديئة ، ويكاد يكون منعزلا عن بقية اقاليم الدولة ،

الا من ممر يسلك منخفضات موازية للخليج العربي ، وكان هذا الممـر مسلك الجيوش والقوافل الى الهند . وبسـبب وعورة ارضـه ، وكثرة جباله ، فقد كثرت فيه القلاع والحكام المحليون المتنفـذون ، وسـيطر العرب على مناطقه الساحلية منذ القديم ، اما المناطق الداخلية فكانت الملجأ الحصين للفرق المعارضة ، وقـد لجـأ اليه الزرادشـتيون بعـد تكوين دولة السلوقيين ، ومن هذا الاقليم بدأت دولة الساسانيين ، ولا بد ان اهله كانوا ذوي حـظوة عند الملوك السـاسانيين ، واظهـروا مقاومة للجيوش الاسلامية عندما تقدمت لضمه الى الدولة العـربية ، وقامت بعض مدنهم بعدة ثورات اخضعت بالقوة ، ثم سـيطر العـرب عليهم بعد ان ظهرت الانقسـامات بينهـم ، ولم يقـوموا بدور كبير في الحياة العقلية والادارية بعد الاسلام .

الجبال :

واما اقليم الجبال فكانت معظم اراضـيه جبلية وعرة ، فيهـا بعض الغابات وفي وديانها مزارع غنية ، والمواصلات فيه صـعبة ، وتسـكنه اقوام متعددة ، ويسيطر على اطرافه الشمالية بيت قارن ، كما يسيطر على طبرستان الصبهبذ ، وكانت جبال هذا الاقليم ملاذ كثير من الفرق الزائغة التي قاومت الاسلام ، وقـد تاخـر فتح طبرسـتان الى زمـن العباسيين وفي هذا الاقليم اعلن بابك الخرمي ، وهو من بيت قـارن ، تمرداً دام ثلاثين سنة حتى قضى عليه في زمن المعتصم .

خراسان :

اما خراسان فانها تقـع في الجهـات الشـمالية الشرقية مـن بلاد الساسانيين ، ويمتد على حدودها الشرقية نهر جيحون وهو نهر ينبع من هضاب البامير ويجري غربا ثم ينعطف ويجري شمالا حتى يصب

في بحيرة خوارزم بعد ان يتبطح ويكون مستنقعات وهذا النهـر يكون الحد الفاصل بين خراسان وبين بلاد الصغد والتركستان ، ولكن هذا النهر كان اضعف من ان يقطع الصلة بين خراسان واواسط آسـيا ، وكانت عليه معابر اشهرها معبر معبري زم آمل الذي كانت تمـر منه القوافل والجيوش .

وتقع في الاطراف الغربية من اقليم خـراسان صـحراء لوط ، التي يسميها العرب المفازة ، وهي صحراء واسعة يبلغ عرضـها اكثر مـن مائتي كيلو متر ، وليس فيهـا مـاء او مـظاهر للحياة ، وهـي ملحية ووعرة وتخترقها خمسة مسالك تربط خراسان باقليم فارس ، ويجدر ان نشير الى ان العرب عندما تقدموا لفتح خـراسان جاؤوها مـن الجنوب اي من جهة البصرة وفارس ، وسلكوا احد هذه المسالك .

اما الاطراف الجنوبية من خراسان فكانت تحددها سـلاسل جبلية وعرة ، واما الاطراف الشمالية فكانت تحددها نهر خوارزم وبطـائحه الواسعة ويتبين من هذا ان اقليم خراسان يكون وحدة جغـرافية ذات وحدة مميزة .

وارض اقليم خراسان متموجة ليس فيها جبال ويخترقها عدد مـن الانهار الصغيرة ، ولهذه الانهـار اهمية كبيرة في الزراعة ولذلك لقيت عناية كبيرة واقيمت عليهـا منظمـات اروائية دقيقـة لفتت نظـر الجغرافيين فوصفوها ، واشهر وصف لها مـذكور في كتاب «مفـاتيح العلوم» للخوارزمي ، غير ان هذه الانهـار لم تكف لزراعة كل الاقليم ولذلك فان بعض المدن ، وخاصة نيسابور وطـوس كانت تعتمـد على المياه الباطنية وعلى ما انشأته فيها من كهاريز .

ساعدت المياه المتوفـرة في خـراسان على قيام الزراعة فـكانت في خراسان عدد من اشجار الفاكهة ، وخاصة الجوز والعنب ، كما كانت تنتج بعض الخضر واشـهرها البطيخ الذي نقلت بعض بذوره الى العراق ومصر فكان يزرع فيها ، غير ان اشهر ما تزرع هـو القطن الذي كان ينتج بكميات كبيرة فكانت خراسان في العصور الاسـلامية

اكبر منتج للقطن .
اما المعادن فكانت قليلة في خراسان ، ولم يعرف منها الا الفيروزج الذي يكثر بالقرب من نيسابور ، غير انه كان بالقرب من اطرافها الجنوبية الغربية مناجم للفضة في الوخم وبدخشان ، وهي اعظم مناجم في العالم للفضة ، التي كانت معدن العملة المستعملة في كافة بلاد آسيا من نهر الفرات الى بحر الصين .
وتربى في خراسان انواع من الحيوانات ، وخاصة البغال والخيول الشهرية ، كما كانت تعيش فيها النجائب وهي الابل ذات السنامين .
ازدهرت الصناعة في خراسان ، وخاصة صناعة النسيج وتميزت عدد من المدن بمنسوجات خاصة تسمى باسمها كالمروية ، والهروية والسابرية ، وكلها تصنع من القطن ، وتتميز بدقة هذه الصناعة مزدهرة بعد الفتح الاسلامي ، فكانت صادراتها تصل بكثرة الى العراق والحجاز .
ويخترق خراسان الطريق التجاري العالمي الذي يمتد بين الصين وبين بلاد البحر المتوسط ويسمى الروحان هذا الطريق الطريق السلطاني ، وكانت تنقل فيه منتوجات الصين من الحرير ونفائس الصناعات الصينية .
ادت الزراعة الى ظهور عدد كبير من القرى ، وادت الصناعة والتجارة الى ظهور عدد كبير من المدن ، ومن اهمها نيسابور ، ومرو ، ومرو الروذ ، وطوس ، وهراة ، وبلخ .
وساعد الازدهار الاقتصادي القائم على الزراعة والصناعة والتجارة على جلب الناس الى خراسان ، وخاصة من المناطق المجاورة ، فكان في سكانها ايرانيون وعدد من الترك والصغد ، كما سكنتها جالية يونانية اقامها الاسكندر في بكتريا فكونت دويلة فيها ، وجلب موقعها النائي اليها عدد ممن كانت دولة الساسانيين تضطهدهم ، فلجأ اليها المانويون ومعتنقوا المزدكية ، كما جاءها عدد من النصارى ، وبذلك صارت خراسان موئلا للمعارضة الساسانية ،

ومركزاً لتيارات فكرية متعددة ، ولم تكن مؤيدة لدولة الساسانيين الذين بذلوا جهوداً في تأمين سيطرتهم عليها ، فكانوا يقيمون فيها حاميات عسكرية قوية ، ويسندون ادارتها الى اولياء عهودهم ، ويلاحظ ان الملك الساساني الاخير يزدجرد لجأ اليها بعد ان دحره العرب ، ولكنه قتل على يد اهل خراسان وبمقتله انتهت الاسرة الساسانية (انظر ملاحظات ابن قتيبة في كتابه «العرب» المنشور ضمن مجموعة رسائل البلغاء ٣٧٥ ـ ٣٧٨) .

تقدم العرب الى خراسان في سنة ٣٠هـ بعد ان امنوا سيطرتهم على الاحواز وفارس وجاءت جيوشهم من الجنوب فأخترقت المغازة واستطاعت ان تستولي على مدن خراسان بعد معارك خفيفة وبذلك ضمت خراسان الى الدولة الاسلامية وظلت مرتبطة بالبصرة وظل الطريق الجنوبي هو المسلك الوحيد لهم ، حيث ان الطريق السلطاني في الشمال كان مقطوعاً الى سنة ١٠٤ حيث امنه العرب بعد ان فتحوا جرجان التي كانت تقطع ذلك الطريق .

وفي سنة ٥٦هـ نقل العرب خمسين الف مقاتل عربي مع عيالاتهم الى خراسان واوطنوهم في مدنها ، وقام هؤلاء المقاتلة بتثبيت الحكم العربي في خراسان ، ثم وسعوا الدولة وعبروا نهر جيجون وضموا بلاد ما وراء النهر الى الدولة العربية .

وثبتت هذه المقاتلة اللغة العربية في خراسان ، كما نشروا فيها الدين الاسلامي ، والواقع ان خراسان اصبحت من اهم مراكز الفكر الاسلامي ، وظهر فيها عدد كبير من المتبحرين بالعربية ومن المؤلفين لمعاجمها والكتاب في آدابها ، فضلا عن عنايتهم بدراسة العلوم الاسلامية ، وخاصة الحديث النبوي والفقه ، ومن المعلوم ان اكثر مؤلفي كتب «الصحاح» في الحديث هم من اهل خراسان .

وقد يسر العرب الحرية لاهل خراسان ، واستطاعوا ان يجلبوا الى جانبهم عددا من رجالها ودهاقينها المتنفذين فيها ، وحارب عدد من الخرسانيين مع الجيوش العربية في فتوح التركستان ، وعند ما قام

العباسيون بنشر دعوتهم اختاروا خراسان اقليما لدعوتهم ، لان خراسان كان فيها عدد كبير من المقاتلين الاشداء الذين لم تقسمهم الاهواء ، ومع ان الدعوة العباسية تركزت على العرب ، وجلبت اليها عددا من اهل اليمن ، الا انه عندما اعلنت الثورة انضم اليها عدد كبير من اهل خراسان ، فلما نجح العباسيون في اخذ الخلافة من الامويين ، قربوا الخراسانيين الذين اصبحت لهم خطوة عند الاسرة الجديدة ، وانتقل عدد منهم الى العراق والثغور ، وكونوا شطرا من الجيش العباسي ، واعطت هذه الخطوة للخراسانيين انطباعا عند البعض بان الدولة العباسية «اعجمية خراسانية» وهو انطباع مبالغ فيه ، لان العباسيين لم يهملوا العرب ، وعملوا مع تثبيت مكانة العروبة في خراسان ، ولا ريب في ان موقف اهل خراسان المعادي للساسانيين كان له اثر في تعاونهم مع العرب ، وهذا يكشف ضحالة الوحدة المزعومة وضعف سيطرة الساسانيين ، وانهم لم يحضوا بتأييد كل سكان الهضبة الايرانية .

العراق :

كان اصل الاسرة الساسانية من اقليم فارس حيث كان منبتهم وبدء دولتهم ، ومصدر جيشهم الذي اعتمد عليه في تاسيس دولتهم وفي القضاء على مناوئيهم . غير انهم استقروا في العراق حال ضمهم الاقليم الى دولتهم . واتخذوا مقرهم وقاعدة ملكهم في طيسفون في «وسط العراق» ، ولم يكونوا في هذا بدعا بين الامم . فان معظم الدول الكبرى التي هيمنت على بلاد الشرق الاوسط كانت تتخذ قاعدة ملكها في وسط العراق بصرف النظر عن البلاد التي نشأت فيها وجنس الجيوش التي اعتمدوا عليها ، فالاخمينيون ومن بعدهم البارثيون ظهروا في جبال ميديا ولكنهم عندما وسعوا دولتهم اتخذوا بابل وطيسفون مقرات لحكمهم ، كما ان الاسكندر والسلوقيين ، وهم

اغريق اتخذوا مقراتهم في بابل وطيسفون ، ويلاحـظ ان العباسـيين وهم من اهل الحجاز وكانوا يقيمـون في الاردن واختاروا بث الدعوة واعلان الثورة في خراسان ، ولكنهم بعـد ان تولوا الخـلافة اتخـذوا مقرهم في الكوفة الى ان شيدوا بغداد فاتخذوا مقرا خالدا لهم .

ويرجع اختيار اواسط العراق لمقـر الدول الكبيرة الى مـا تتميز به هذه البقعة من خصائص مادية وحضـارية ، فهـي منطقـة ارضـها مستوية تخترقها الانهار والترع التي تروي ارضها الخصبة ، وتغسل تربتها من الاملاح ، وتكون وسائل للمواصلات وموانع دفاعية للقوات الغازية ، والواقع ان هذه المنطقة كانت اغنى مناطق العالم القـديم في انتاجها الزراعي المنوع من النخيل والكروم واشجار الفاكهة والخضر وانواع الحبوب بما في ذلك الحنطة والشعير .

وكانت خصوبة ارضها وصلاحيتها للزراعة من عوامـل اسـتيطان البشر لها ، والى ازدحامها بالسكان ، وكثرة المستوطنات من القـرى والمدن ، ثم الى تقـدم الحضـارة بمختلف مـظارها المادية والفنية والفكرية ، والى التنوع والطرافة في مظاهر حياتها . ممـا اعلى مـن سمعتها وزاد من جلب السكان لها ، وما شـهرة بابل بالسـحر وبلبلة الالسن الا تعبيرا عن هذا الطـابع المميز لحضـارتها التي اتسـعت بالنظرة العالمية الواسعة دون النظرة المحلية المحدودة الضيقة ، فكانت هذه النظرة المؤثرة في اسلوب التفكير عاملا اضافيا يتفاعل مع ضمها عواصم الدول الكبرى .

غير ان هجرات الناس الى هذا الاقليم لم يغير مـن طـابع سـكانه الطاغي الناجم من كونهـم مـرتبطون بالجـزيرة العـربية عنصريا ولغويا ، فان اطراف العراق الغربية مفتوحة لشبه جزيرة العرب ، ولا تنفصل عنه بعوارض جغرافية معـرقلة ولذلك كان سـكانه منذ اقـدم الازمنة مرتبطون باهل الجزيرة ، تشهد بذلك لغاتهم السـائدة التي لم يكن تنوعها يزيد على كونها لهجات من اللغة العـربية الام . ولم تفلح الدول الكبيرة التي جاءت مـع جيوشـها الاجنبية مـن تغيير التكوين

«العربي السامي» لهذه البلاد ، وظلت الاسر المالكة الدخيلة مع من جلبته اجنبية حتى تنصهر بالثقافة العامة لاهل البلاد ، او تبقى «قشرة» ظاهرية غريبة .

وكان هذا وضع الساسانيين عندما اتخذوا عاصمتهم في طيسفون ، فقد حاولوا الاحتفاظ بلغتهم الفارسية البهلوية وبدينهم الزرادشتي ، فعزلوا انفسهم عن السكان وظلوا اغرابا ، ولجأوا الى تطبيق نظام اداري محكم يؤمن لهم السيطرة ولكن لا يؤمن حب الناس لهم ، اما السكان فظلوا محتفظين بلغتهم الاصيلة ويستعملون في كتابتهم خطهم الخاص المبسط ، ويسيرون على نظمهم الخاصة في حياتهم وحضارتهم مما ورثوه من حضارة ترجع الى ازمنة سحيقة ، فالحكم الساساني في العراق لم يكن اكثر من قشرة رقيقة ظاهرية تغطي لبابا غنية تختلف عن القشرة وتطرح سؤالا جوهرياً هو هل يصح ان نقول عن هذه القشرة «الحضارة الساسانية» او «الثقافة الفارسية» في العراق ، ام نقول «الحضارة» و «الثقافة» العراقية في زمن الساسانيين ، هل ان الذي بني الحضارة السائدة انذاك هم اهل العراق ام الساسانيون .

ان العزلة التي قامت بين اهل العراق وحكامهم الساسانيون ، جعل حكم الاخيرين سطحيا معتمدا على القوة والفرض ، ولم يربط هؤلاء الحكام بالسكان ، الذين لم يقبلوا على اخذ الحضارة الفارسية ونظمها ودينها وعقائدها ، وانما ظل هؤلاء السكان يتكلمون اللغة العربية ، ثم اعتنق اكثرهم النصرانية وهي من الاديان السماوية التي ظهرت في احد اقاليم الجزيرة (فلسطين) وحمل دعوتها رجال من اهل الجزيرة . فلما جاء العرب يحملون رسالة الاسلام ، ولهم نظرة عالمية تمجد الاخلاق والحرية والاخوة الانسانية لم يقف اهل البلاد بوجههم ولم يناصروا الساسانيين ضدهم ، وانما مالوا الى العرب فلم يقاتلوهم ولم يعارضوا سيادتهم ، واخذوا تدريجياً يندمجون معهم ،

وبذلك برزت الى العيان سمة العراق الحقيقية واختفت بسرعة سمات الساسانيين .

★ انظر عن هذه الحركات الكتب التالية :ـ

(١) صديقي : الحركات الدينية الايرانية في القرنين الثاني والثالث (بالفرنسية) .

(٢) براون : تاريخ فارس الادبي ج' (بالانكليزية) .

(٣) حسين تقي زاده . ماني ودين (بالفارسية) .

(٤) سبولر : ايران في العهود الاسلامية الاولى (بالالمانية) .

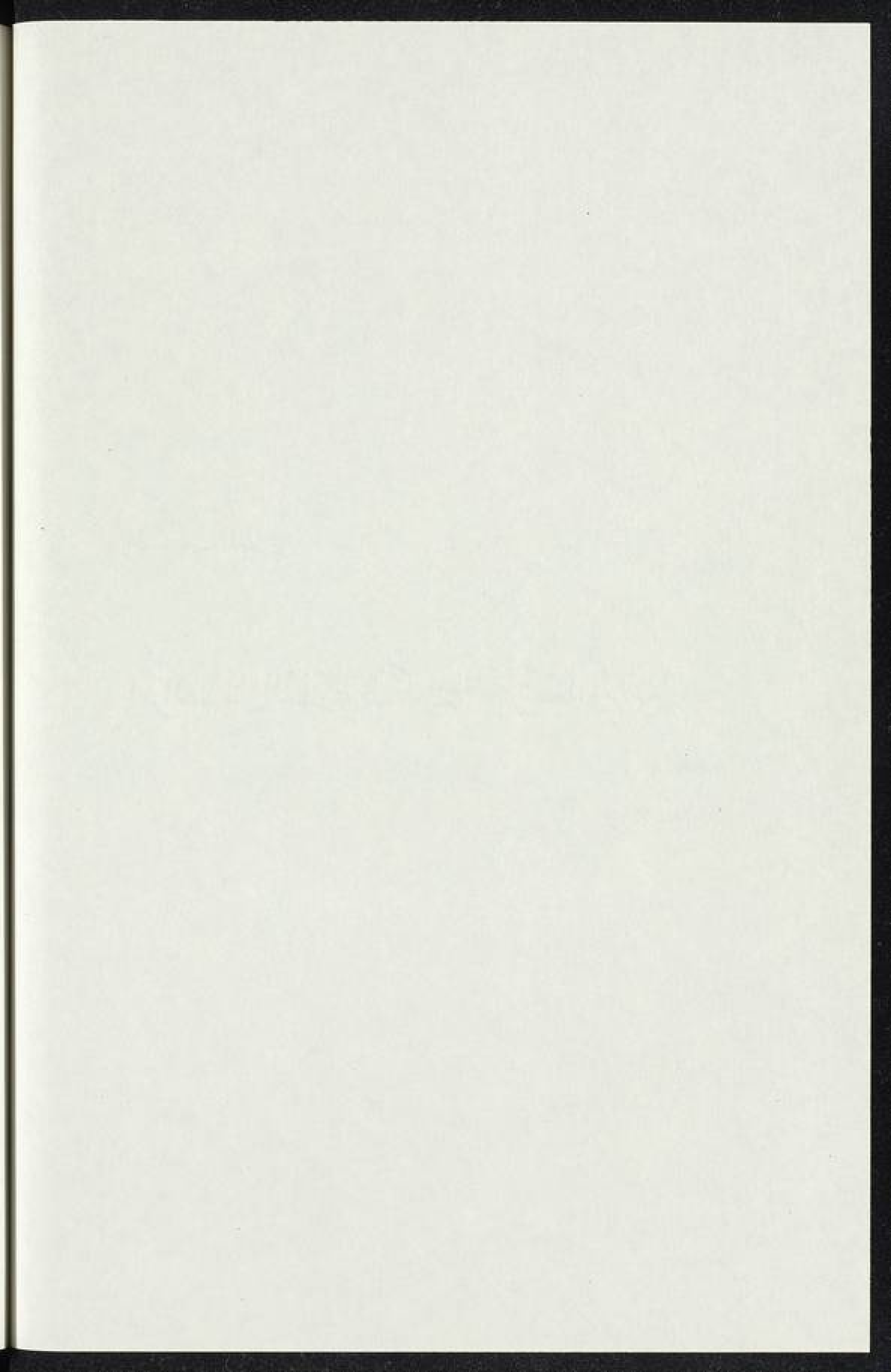
(٥) عبد العزيز الدوري ، جذور الشعوبية .

(٦) عبد الرحمن بدوي ، من تاريخ الالحاد في الاسلام .

البحث الثاني

أثر العامل التاريخي في تكوين الشخصية الإيرانية

الدكتور علاء نورس



حقا ان التاريخ القريب هو وليد للتاريخ البعيد وان الحاضر هو صورة للماضي الموغل في القدم ، وان كان هذا يصح حينا ولايصح احيانا فأن الواقع الواضح الذي لالبس فيه ، يجعل من التاريخ الفارسي المعاصر جزءاً من حلقات استمرت منذ عهود طويلة غابرة .

ولما كان سلوك الامم وعلاقاتها هو نتاج شخصيتها القومية التي كونتها تفاعلات اجتماعية واقتصادية وسياسية عبر التاريخ ، فان الاهمية تبرز لتحديد سمات الشخصية للامم والدول بالذات ، وذلك بغية التعامل معها وفق هذه السمات ، وقد حظيت هذه المسألة باهتمام واسع من لدن مؤسسات متخصصة عديدة في عالمنا المعاصر فقامت بالعديد من الدراسات لشخصيات الدول القومية سواء في فترات السلم أو الحرب .

ان اسس دراسة الشخصية القومية تقوم ـ كما نعرف جميعاً ـ على البحث الميداني والملاحظة المباشرة وتعد نتائجه صحيحة في الاعم الاغلب اذا ما توخت الدقة العلمية ، على حين لا تعتمد الدراسات القائمة «عن بعد» لانها لا ترقى في نتائجها الى معطيات الدراسة الميدانية ، ومع الاقرار بذلك الا ان الشخصية الايرانية ـ موضوعة الدراسة ـ تكاد تنفرد عن باقي الشخصيات القومية في العالم من حيث ان الدراسة الميدانية لا تشكل اساسا جوهريا في دراستها ويعزى ذلك

الى ان الشخصية القومية .. للدول قد طرأ عليها كثير من التبدلات عبر حقب التاريخ ، من حيث سلوكها في التعامل مع الامم المجاورة لها ، على حين تميزت الشخصية الايرانية بثبات سلوكها عامة وازاء جيرانها العرب على وجه التخصيص ، وهو ما يوضحه منهج البحث التاريخي لهذه اللشخصية .

ومهما يكن من أمر ، فان تحليلنا للشخصية الايرانية اعتماداً على هذا المنهج سيتناول دراسة المسار التاريخي من جهة وظروف التنشئة الحديثة للفرد الايراني من جهة اخرى ، لكونهما المقومين الاساسيين اللذين تتبلور في ضوئهما الشخصية قدر تعلق الامر بأثر العامل التاريخي .

ويتضح من الخارطة التاريخية للحقبة التي شهدت بدايات استيطان القبائل التي تنتمي للاقوام الهندو ـ أوربية في ايران ، ان الظروف السياسية للكيانات التي كانت قائمة انذاك في المنطقة في حدود الالف الاول قبل الميلاد ، قد مكنت اكبر تلك القبائل وهي الميدية والفارسية من الاستقرار في أجزاء من ايران ومن ثم التجاوز على حدود تلك الكيانات فكان اقليم همدان مركز استيطان الماذيين بينما كان الجزء الجنوبي الغربي من ايران الذي عرف فيما بعد باسم «بلاد فارس» المكان الذي استقر فيه الفرس ، وبذلك جاور الميديون الدولة الاشورية بينما جاور الفرس الدولة العيلامية .

ولقد تدرج كيان الفرس السياسي من واقع التبعية للميديين الذين انهمكوا في صراع شديد مع الاشوريين ، بينما ساعد ضغط الاشوريين على الدولة العيلامية الفرس على التوغل اكثر فأكثر في الجهة الجنوبية الغربية من ايران .

وضمن هذا الواقع السياسي[1] ، مارس الفرس سلوكاً قائماً على المناورة ، ففي الوقت الذي اظهرو فيه انحيازاً الى العيلاميين في

---

(١) عن الاوضاع السياسية في الشرق القديم ودور الفرس فيه . انظر : طه باقر . مقدمة في تاريخ الحضارة القديمة جـ٢ . بغداد ١٩٥٦ .

حربهم مع الاشوريين ، سرعان ما ضمنوا اعترافاً اشورياً باستقلالهم لقاء التخلي عن مساعدة العيلاميين ، الامر الذي ساعد على سقوط الدولة العيلامية هذا من جهة ومن جهة أخرى فان النصر الميدي على الاشوريين وانهيار دولتهم سنة ٦١٦ق . م دفع الفرس للتقرب الى القوة الغالبة عن طريق المصاهرة السياسية حين تزوج قمبيز الاول ابن كورش الاول من ابنة الملك الميدي (استياجز) مما اكسب السلالة الفارسية الاخمينية الحاكمة شأنا سياسياً اتخذ أبعاداً مهمة فيما بعد ، وقد تمثلت بحقوق ترتبت لكورش الاكبر الذي انجبته تلك المصاهرة ، في عرش المملكتين الميدية والاخمينية ، فكان تأسيسه لأمبراطورية حكمت زهاء قرنين من الزمان (٥٥٨ ـ ٣٣١ق .م) وابتدأ عهده بالتحالف مع الدولة الكلدانية في عهد ملكها نبونهيد .

ان امتداد الهيمنة السياسية الفارسية على مساحة شاسعة من ايران ولد طموحات كبيرة لدى كورش الاكبر جعلته يضع اسس ستراتيجية تقوم على توسيع رقعة هذا الامتداد باتجاه مراكز الحضارة في الشرق القديم التي كانت تمر في ادوار ضعفها وتدهورها وتوطئة لذلك نقض الفرس ايضاً تحالفهم مع الكلدانيين للاندفاع نحو بلاد ما بين النهرين وسورية فكانت حملتهم المعروفة على بابل سنة ٥٣٩ق . م واحتلالها بمساعدة اليهود الذين شاركوهم طرفا حليفا لهم ومتواطئا معهم .

واذا كان كورش قد حقق قسماً من ستراتيجيته التوسعية ، فأن خلفاءه من بعده(قمبيز ودارا)واصلوا العمل ضمن هذا الاتجاه . فكان اندفاع الفرس نحو مصر وانحاء البحر الاحمر وتجاوزت الاحلام الامبراطورية هذه الحدود لتشمل بلاد المغرب العربي والحبشة حيث تحدثنا المصادر على ان قمبيز وضع الخطط لثلاث حملات حربية ، احداها الى قرطاجة في تونس ، وأخرى الى واحة آمون في الصحراء الغربية للسيطرة على الطريق المؤدي الى ليبيا ،

والثالثة على الحبشة[٢] .

ويمكننا ان ندرك بسهولة ان حكام الدولة الفارسية الاخمينية قد تميزوا بنزعات عدوانية توسعية ، فكانت عهودهم عهود حروب متواصلة ، يضاف الى ذلك استخدامهم لصيغ تعسفية في الاجزاء التي تطأها قواتهم ، وبابل ، على سبيل المثال لا الحصر حين ثارت ضد الاحتلال الفارسي تعرضت لحملة فتكت بالسكان فتكاً ذريعاً ، وقد ذكرت المصادر انه تم صلب زهاء ثلاثة الاف رجل من وجهائها ، وفي الوقت نفسه كانت الاحواز تواجه حملة فارسية للقضاء على الثورات التي نشبت فيها .

ان تمكن الفرس من التحكم في زمام القيادة السياسية في ايران واندفاعهم لتحقيق نزعتهم الامبراطورية ، جعلهم يشعرون بالاعتداد والغطرسة ، ولذلك نرى ان الاسس التنظيمية التي وضعها (دارا) لادارة الدولة الفارسية الاخمينية قد اتسمت بتأكيد عنصر القيادة الفارسية ، حيث كان الحكام جميعاً في الولايات العشرين التي تتكون منها الدولة ، فرسا ، كما يتجلى ذلك ايضاً في نزوع الفرس للتخلي عن اي لقب فيه ذكر للبلاد الاخرى غير الفارسية ، فمنذ سنة ٤٨٦ق.م الغي اللقب الذي اوجده كورش وهو «ملك بابل» فأصبح «ملك الفرس» وعد الفرس الشعوب الاخرى رعايا تابعين لهيمنتهم ، ولم تقتصر نزعة الاعتداد والغطرسة لديهم على ذلك فحسب وانما تمثلت في اطماع امبراطورية تتضح في لقب «ملك الملوك» الذي اطلقه الحكام الفرس على انفسهم مما يدل دلالة ، لامراء فيها ، على هوس أمجاد متوهمة عصفت في نفوسهم فأحالتهم أناسا غير اسوياء .

ومع ان الفرس حاولوا بهذه السطوة السياسية والالقاب المعظمة التعويض عما يعانونه من النقص الحضاري الذي كانوا يشعرون به ــ وهم الاقوام البربرية الغازية ــ نتيجة امتدادهم في الغرب

(٢) لم تحرز الحملات التي وجهت بهذا الخصوص اية نتيجة واضطر الفرس الى التراجع ومواجهة الثورات التي اندلعت في الاجزاء المحتلة .

(الوطــن العــربي) حيث دخلت بلاد عريقــة في الحضــارة كبلاد بابل وآشور ومصر والشام تحت هيمنتهم ، فان عقدة النقص ازاء الغــرب تركزت بعد ان سقطت أولى امبراطورية لهم على يد فــاتح جــاء مــن الغرب هو الاســكندر المقــدوني ولقــد تميزت الادوار التاريخية التي تعاقبت بعد ســقوط الدولة الاخمينية طــوال العصــور القــديمة ، باســتمرار النزعة الفــارسية التوســعية ، حيث كانت نزعة الحــرب والاعتداء تملأ اذهان الحكام الفرثيين والساسانيين لتحقيق الخارطة الامبراطورية الاخمينية ذاتها فتم احتلال العراق مــرة اخــرى ســنة ١٤١ق.م على يد الملك الفرثي متريداتس الاول ، وعاد الاحتلال ثانية على يد الملك الساساني اردشير سنة ٢٢٦م وامتد الى بلاد الشام .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ، انه بالرغم من ان السلالة الساسانية ذات اصول دينية كهنية ، الا ان ســلوكها لم يكن ليختلف عن ســلوك السلالات الحاكمة السابقة لها ،فبالاضافة الى اســتخدامها الحــرب وسيلة للتوسع ، فان العنجهية والغرور كانتا سمتين مميزتين لملوكها ، ولعل من ابرز الامثلة على ذلك هو رفض الملك شابور لهدايا بعث بهــا أذينة ملك تدمر العربية قائلا : من يكون اذينة هذا ولم لم يجيء بنفسه ويسجد للملك العظيم[٣] وكذلك مادون على «نقشة رستم» من كتابات ، حيث جاء فيها :

«انني الملك العــظيم داريوس، ملك الملوك ، ملك هـــذه البلاد ، واجناس أخرى متعددة ، ملك هذه الارض الممتدة الى مسافات شاسعة ، ابن هيباتس الاشميدي الفــارسي ، ابن بلاد فــارس الارى ، من السلالة الارية .....» .

---

(٣) كان شابور قد استولى على بعض المدن السورية اثناء حربه مع الرومــان وفي اثناء عودته عن طريق شمال سوريا وعند اقتراب جيوشه من تدمــر ارســل اليه اذينة مــن باب المجــاملة الهدايا . فكان جواب اذينة ان ظهر بجموعه وانزل بالقوات الفارسية الهزيمة (٢٦٥م) .

واخيراً الموقف المعروف الذي انفــرد به كسرى حين دعاه الرســول (ص) للاسلام . غير ان عنجهيتهم هذه كسر شوكتها العرب المسلمون فانهارت دولتهم بعد ان دامت نيفا واربعة قرون ٢٢٦ ـ ٦٥١م .

ولقد ولد القضاء على الكيان السياسي للفرس رد فعل قــوي لديهــم بسبب عقدة الهزيمة التي ترتبت على ذلك ، وفي هذا يقول المقريزي :

«كانت دولتهم في سعة الملك وعلو اليد على جميع الامم وجلالة الخطر في نفســها بحيث كانوا يســمون انفســهم الاحــرار والاسياد وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم فلمــا امتحنوا بزوال الدولة عنهم على ايدي العرب .. تعاظم الامر وتضاعفت لديهم المصيبة ورامــواكيد الاســلام بالمحــاربة في اوقــات شتى»[4] .

ومن هنا نلاحظ ان الفرس لم يمتزجوا بوشائج الصلة مع العرب بل حافظوا على شخصيتهم الذاتية حتى في ظل الاسلام وتحصين انفسهم ضد الانصهار ولذلك اقروا بواقع سيادة الاســلام ولكن دون ســيادة العرب خلافاً للشعوب الاخرى التي اصبحت تدين لفضل العرب بنشر الراية الاسلامية ، كما نلاحظ انهم لم يلبثوا ان أجروا على التعــاليم الاسلامية تحويرات ليرعلوها ملائمة لاهوائهم .

وهكذا يكون تاريخ الفرس القديم متغلغلا في صدورهم ، وهو المحرك الفعال لسلوكهم لذلك كانوا شــوكة في جــانب العــروبة وتميزت ردود فعلهم بتخريب الاســلام مــن الداخــل بالفتن والدعوات المجــوسية ومقاومة كل سلطة اسلامية غير فارسية .

وتمثلت أدوارهم التي انطــوت على خــطر كبير في الشــعوبية التي كرست جهدها للحط من شأن العرب وحضارتهم والهزء بانجــازاتهم الفكرية والعلمية ، وتبنت الشعوبية أهدافا ذات ابعــاد ثلاثة : البعــد

---

(٤) المقريزي ، الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٦١

الديني ويقوم على تشـويه مبادىء الاسـلام وهـدمها بكل الوسـائل والبعد السياسي الذي يقوم على محاربة الامة العـربية والعمـل على ازالة كيانها وزعزعة ثقة ابنائها بانجازاتها العظيمة المستمرة ، أمـا البعد الحضاري فيستهدف تشويه الحضارة العربية والانتقاص منها .
ان الشواهد التاريخية على هـذا السـلوك الفـارسي عديدة ، وتتمثل بالغلو والزندقـة والتمسـك بالديانات الثنوية (الزرادشـية والمانوية والمزدكية) ، على الصعيد الديني ، وعمليات اغتيال الخلفاء الراشدين الثلاثة وحركات المختار الثقفي وعبدالرحمن بن محمـد بن الاشـعث والراوندية والمقنع وسنباذ وبابل الخرمي والمازيار والافشين وغيرها على الصعيد السياسي ، اما على الصـعيد الحضـاري فـان الفـرس عملوا على الطعن بالعرب وحضارتهم واحياء التراث الفارسي القـديم والاشادة به واظهاره بصورة متقدمة على التراث والحضارة العربية .

واذا كانت هذه الحـركات قـد ادت دوراً كبيراً في اضـعاف الدولة العربية ، فان حالة التداعي التي اعقبت الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي وما نجم عنها من انكفاء سياسي حضاري للامة العربية مكنت الفرس من اسـتغلال الفـراغ السـياسي للظهـور على مسرح الاحداث قوة مضادة للوجـود العـربي تمثلت في كيان سـياسي عرف بالدولة الصفوية وذلك سنة ١٥٠٠م .

لقد ادرك قادة الكيان الفارسي الجديد اهمية الدين ودوره في المجتمع الاسلامي فظهروا بحركة دينية سياسية استخدموها بحمـاسة لتثبيت كيانهم السياسي وتوسيعه فالشيخ اسماعيل الصفوي الذي قاد الحركة الصوفية الصـفوية وتحـدث الى مـريديه انه لا يتصرف الا بمقتضى أوامـر الائمـة الاثنى عشر وأنه لذلك معصـوم وليس بينه والمهـدي فاصل ، سارع الى طرح ملابس التصـوف ووضـع التاج على رأسـه ولقب نفسه بالشاه كما كان يفعل اسلافه الملوك بعد ان تحقـق له بناء

الدولة الفارسية الجديدة ذات النواة الثيوقراطية(٥).

ان هذا السلوك تلته انماط سلوكية اخرى في مقدمتها استلهام التاريخ الفارسي واستحضار النزعة الامبراطورية من جهة ومعاداة العرب من جهة اخرى ، فكان التوجه نحو الغرب هدفاً ستراتيجياً لهذه الدولة الجديدة مثلما حصل في الماضي .

وبالرغم من تقمص قادة الفرس الجدد شخصية حماة الدين ، الا أنهم تحالفوا كأسلافهم مع اكثر القوى خطراً على الدين فكان تحالفهم مع البرتغاليين الذين غزوا الوطن العربي واحتلوا أجزاء منه ، فلقد نصت معاهدة ١٥١٥ بين الشاه اسماعيل الصفوي والفونسو البوكيرك ، على ان تكون السفن الحربية البرتغالية في متناول أيدي الفرس لشن هجوم على البحرين والقطيف ، وان يقوم بين الطرفين تعاون عسكري في منطقة الخليج العربي(٦) .

ولكي نقدم صورة متكاملة عن السلوك الفارسي ازاء العرب في العصر الحديث وثباته خلال الحقب المتعددة التي تولي السلطة فيها حكام ينتمون الى اسر صفوية وافشارية وزندية وقاجارية وبهلوية ، ونعرض للمظاهر الرئيسية لهذا السلوك وقد تمثلت في بعدين اثنين :

١ ـ السلوك القائم على الفعل العسكري العدواني .

٢ ـ السلوك السياسي المتمثل بنقض المواثيق والمعاهدات .

وفيما يخص الفعل العسكري العدواني الذي انتهجة الفرس ، شهد مطلع العصر الحديث اول اندفاعين عسكريين نحو العراق ومنطقة رأس الخليج العربي احدهما نفذه الشاه اسماعيل الصفوي سنة ١٥٠٨ والاخر قام به الشاه عباس الصفوي سنة ١٦٢٣ ، وتشير

---

(٥) حول ثيوقراطية الدولة الصفوية ، راجع :

L. LocK hart, the Fall of the Safavi Dynasty and the Afgan Occupation of persia, Cambridge, 1950, pp. 16-22

- J. G. Lorimer, Gazetteer of the persian Guif, Vol, 1, Historical, part. 1, (Calcu te) 1915), pp. 4-5.

المصادر المعاصرة الى اعمال التخريب التي ارتكبتها قوات الاحتلال الفارسي .

ولا يفوتنا ان نلاحظ ان الفرس كلما شعروا بقدرة الاندفاع العسكري ، توجهوا الى تحقيق هدفهم التوسعي غربا ، فما ان انتهت السيطرة الروسية التركية الافغانية لاجزاء كبيرة من ايران التي ساهمت في سقوط الدولة الصفوية سنة ١٧٢٢[٧] ، حتى كانت المهمة الاولى للسلطة الجديدة هو تحقيق الهدف المشار اليه بالرغم من ان حالة التمزق الداخلية كانت ما تزال هي الظاهرة الرئيسية للاوضاع في ايران ، وكانت هذه السلطة تدرك جيداً قيمة اشغال شعوبها بحالة حرب جديدة ، وبعبارة اخرى ان الظاهرة التي يلمسها الباحث في التاريخ الايراني هي مسألة الارتباط التي أوجدها الحكام الايرانيون منذ اقدم العصور بين حالة التمزق الداخلي وضرورة خلق حالة حرب خارجية ولذا نرى اندفاع قوات نادر شاه بغزوات متعددة وعنيفة نحو العراق ومنطقة الخليج العربي طوال فترة حكمه (١٧٣٢ ـ ١٧٤٧) .

ومن الجدير بالملاحظة ايضا ان الاندفاع العسكري للايرانيين ووصولهم الى بعض الاهداف ، كان يثير فيهم كوامن الروح الامبراطورية التوسعية الى اقصى الحدود من جديد وهذا ما تجسد في خطط نادر شاه الذي حاول اعادة الخارطة الاخمينية من جديد ، فكانت حملاته على الهند وتركستان وارمينية والاناضول والعراق وعمان والبحرين[٨] .

وتتضح المعادلة القائمة على طرفي حالة التمزق الداخلي وحالة الحرب الخارجية عندما تخفق المخططات المتعلقة بالحالة الاخيرة فتتضاعف عوامل الصراع الداخلي وتأخذ ابعادها كاملة ، فقد أدى

---

(٧) انظر الفصل الثاني من كتابنا «العراق في العهد العثماني» ، بغداد ١٩٧٩ .

(٨) عن حملات نادر شاه انظر :

- L. LocKhart, Nadir Shah, London, 1938

فشل نادر شــاه في تحقيق خــططه التوســعية واغتياله ، الى تفجــر الصراعات الداخلية ودخلت ايران في خضم حــرب اهلية دامــت عشر سنوات ١٧٤٧ ـ ١٧٥٧ ، وظهرت كيانات ســياسية متعــددة يمثل كل منها شعبا من شعوب ايران ، ولم تنته حالة التمزق هــذه الا بعــد ان ظهرت قيادة كريم خان الزند ، ســنة ١٧٥٧ ، التي ســارعت الى خلق حالة حرب خارجية جديدة شــكل العــراق ومنطقــة الخليج العــربي ساحتها التقليدية .

ومثل هذه الحالة تكررت بعد اخفاق كريم خان في حملاته ، فــكانت وفاته سنة ١٧٧٩ بداية صراع داخلي جديد امتد عشر سنوات وانتهى بادعاء الشاه فتح علي القاجاري الذي تسلم السلطة بان خطراً روسيا يتهدد حدود ايران الشمالية وخــطراً عثمــانيا يتهــدد حــدودها الغربية[٩] .

ويشكل نقض المواثيق والمعاهدات مــظهراً رئيســا آخــر للســلوك الايراني ، وهنا نشير الى ان الحرب التي توصف في القــانون الدولي بانها حالة طارئة لها بداية ولها نهاية هي ليســت كذلك عندمــا تكون ضمن ـ الصيغة التوسعية ـ ، فالاهداف المتوخاة منها قــد لا تتحقــق بابعادها المطلوبة بالفعل العسكري ، فعندئذ تستمر حالة الحرب ولكن بصيغة السلام المفــروض الذي يأخــذ شــكل ميثاق أو معــاهدة غير متوازنة في موادها وهذا ما تميزت به علاقات الفرس مــع العــرب في العصر الحــديث . فقــد كانت تعقــب كل غزوة أو حملة فــارسية على العراق ومنطقة الخليج العربي حالة سلام تقــرها معــاهدة تحقــق في الغالب جزءاً من الاهــداف الســتراتيجية التوســعية حتى اذا مــا استنفدت ايران اغراضها من هذه المعاهدة عمدت الى خلق حالة توتر تضاعف فيها من تدخلها في الشؤون الداخلية لتدفــع بهــا الى حــرب

---

(٩) يعد جون مالكولم ابرز من دون تاريخ ايران في تلك الحقبة ، في كتابه :

- The HistorY of persia, 2 Vols, (London, 1815)

فعليه تعقبها الصيغة ذاتها . ومن هنا نرى ان الفرس قد حصلوا على مكاسب اقليمية واسعة نتيجة سلوكهم السياسي هذا ، ومراجعة للتاريخ الحديث وما شهده من علاقات دولية ، تظهر أن ايران تنفرد بكثرة المعاهدات التي عقدتها ثم عادت فنقضتها ، وحقبه الهيمنة العثمانية على العراق حافلة بذلك .

وبالاضافة الى استلهام الفرس للتاريخ القديم واسترضاء النزعة الامبراطورية فقد رافق سلوكهم العدواني ونقضهم للمعاهدات الاستمرار بالعنجهية والغطرسة كما يوضحه اسلوب تعامل الحكام ممن تولوا السلطة في ايران ، فقد أرسل نادر شاه انذاراً الى قائد القوات الروسية التي كانت تسيطر على بعض الاقاليم الايرانية في منطقة بحر قزوين ، يطلب منه ترك البلاد والا فانه سيرسل الفراشين – الخدم – لطرده ، فأرسل مبعوث روسي الى (مشهد) لطلب ايضاح عن هذه الاهانة ولكن نادر رفض اعطاء أي جواب فوري وترك المبعوث في المعسكر الفارسي لبعض الوقت ثم بعث في طلبه ، وقد كان خارجاً لتوه من انتصار عسكري ، فوجده المبعوث جالساً على الارض يأكل الخبز ويداه وثيابه ملطخة بالدماء ، وعندما استفسر عن سبب استدعائه أجابه نادر انه رغب ان يراه المبعوث يأكل الطعام القاسي بيدين مغطاة بالدماء «يمكنه ان يخبر سيده بأن مثل هذا الرجل لن يتخلى عن جيلان»[10] .

كما يذكر ان نادر شاه حين هدد باحتلال بغداد سنة ١٧٣٢ بعث اليها بخطاب جاء فيه :

«نحن سائرون حالا على رأس جيشنا المظفر لنتنسم هواء سهول بغداد العليل ولنستريح في ظل اسوارها»[11] .

---

(١٠) انظر : percy Sykes, A History of pesia, II, London, 1969): P. 253. وكانت جيلان من المقاطعات التي استولت عليها روسيا سنة ١٧٢٣ .

(١١) ستيفن هيمسلي لونكريك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ترجمة جعفر الخياط ، ط ٤ بغداد ١٩٦٨ ، ص ١٦٩

وحين توج نادر شاها على ايران سنة ١٧٣٦ ، صدرت عملة جديدة نقشت عليها الكتابة التالية :

ستشتهر مملكته بكل ما ملكت الارض من ذهب
وسيعرف اسمه الملكي قاهر العالم وعنقاء ارض فارس[١٢]

ووصـــف وليم كوكل (William Gockell)، المقيم البريطــــاني لشركة الهند الشرقية في اصفهان ، النزوع العدواني لهذا الحاكم ــ وهو يتكلم عن معرفة شخصية ــ قائلا :

«كان نادر شاه في الحرب يخضع كل شي لها ، وفي السلم يشغل نفسه بالاعداد لحرب جديدة وان الســلام لم يكن يعني له ــ في الحقيقة ــ شيئا اكثر من فترة فاصلة تبعث على الضــيق بين حرب وأخرى»[١٣] .

اما كريم خان الزند فان عنجهيته دفعته الى مخاطبة امــام عمــان احمد بن سعيد والشيخ مهنابن ناصر حاكم امارة بندر ريق وكأنهمــا حاكمان خاضعان له طالبا منهمــا دفــع الاتاوة والافــانة سـيمحق كيانهما بالقوة المسلحة . ويذكر لوريمر (Lorimer) احــد المختصـين الانكليز بشؤون الخليج العــربي ، ان القــوات الفــارسية حين غزت البصرة سنة ١٧٧٥ ، طلب كريم خان من قائدها ، ان يزوده بمخــطط للبلاد الممتدة من البصرة الى مسقط . ويعلق لوريمر على ذلك قائلا :

«ان كريم خان لم يكن يهدف لان يستغل البصرة ماليا ، فقــط بل ينوي ايضا اتخاذها قاعدة لفتوحات اخرى»[١٤]

هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد اشارت المصادر الى نمــاذج مــن اساليب تعامل الفرس على صعيد عامة الناس وعلى صعيد الحــكام ،

---

(١٣) -Lockhart, Nadir Shah, P. 269

(١٤) Lorimer, OP. Cit. , Voi. 1, Part. II, p. 1813

فيقول الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف الذي زار ايران سنة ١٥٧٣ «ان الفرس شديدو المساومة وأنهم لا يتوصلون الى اتفاق الابعد وقت طويل وقد جربتهم بنفسي مرات عديدة»[١٥] .

ويقول عبدالله السويدي احد علماء بغداد انه سأل احد علماء ايران ، ممن حضروا مؤتمر النجف سنة ١٧٤٣ الذي دعا الى عقده نادر شاه بحجة التوفيق بين المسلمين عن مدى صدق نادر شاه في دعوته فقال له : ان المسألة في الحقيقة لا تتعلق بالدين وان الشاه له اغراض سياسية يبغيها من وراء هذه الدعوة ، ويضيف السويدي قائلا : انه وجد الفرس يمتازون بالغطرسة والغرور .

ولقد كرست مناهج التاريخ الحديث جملة هذه المعاني وقررت من جديد النمط السلوكي للشخصية الايرانية واكدتها ، ومعروف ان للظروف التنشيئية تأثيرها المباشر على الفرد في رسم خطوط شخصيته . وللمدرسة دور كبير في هذا الشأن ، فهي بركنيها المعلم والمنهج التعليمي تغرس في نفوس الناشئة الاسس الفكرية التي يتحدد ضمنها نمط السلوك على صعيد الفرد والجماعة ، والمعلومات التاريخية التي تقدم في المدرسة لها تأثيرها الكبير ضمن هذا السياق ، فهي تعمل بشكل فعال على تغذية روح البغضاء أو روح الود بين الامم ، ولقد لجأت العديد من الدول ابان فترات تاريخية الى استخدام منهج تعليمي في التاريخ أثر تأثيراً سلبياً أو ايجابياً في العلاقات الدولية ، الامر الذي جعل الامور العلمية والتعليمية لا تخرج عن نطاق المعاهدات والاتفاقات الدولية تعزيزاً لاواصر العلاقات بين الدول .

---

(١٥) انظر الترجمة العربية للرحلة بعنوان : رحلة المشرق ، ترجمة سليم طه التكريتي بغداد ١٩٧٨ .

ولو درسنا النموذج الايراني من خــلال الكتب المنهجية المقــررة في مدارس ايران لمادة التاريخ وما تتضمنه من نصــوص تتعلق بالوطــن العربي ، لوجدنا ان الفرس قد افسدوا التاريخ وشوهوا معالمه ، بمــا دسوا عليه ، واضافوا من مفتريات وتلفيقات وحذفوا من حقائق كانت لهم مصلحة في حذفها .

ففي المرحلة الابتدائية تضمن كتاب الاجتماعيات للصف الخــامس الكثير من الاساءات الى العرب وجاء فيه ان الحركات التي ظهرت في ايران في العصر الاسلامي كانت تهدف جميعاً «تحرير الايرانيين مــن يد العرب» وان دور ابي مسلم الخراساني كان كبيراً في هذا المجــال ، «لقد صمم ان يضع نهاية للخليفــة العباسي ويريح الايرانيين بصــورة قطعية من سيطرة العرب» ، كما ورد ايضا «مــن المؤســف ان الفــكر العالي (الفــارسي) تغير تغيراً كبيراً في زمــن الخلفــاء الامــويين والعباسيين واستولى الحكام والولاة على اموال الناس» .

من هذه النصوص يظهر مدى التشويه في عرض الاحداث التاريخية واثارة روح العداء لدى الناشئة وتصوير العصر العــربي الاســلامي وكأنه عصر احتلال لايران وليس عصر تحرير .

اما المرحلة المتوسطة فقد حفلت هي ايضا بالمزيد من هذه النصوص وبتفصيلات اكثر انحــرافا عن الحقيقــة التاريخية ، فــكتاب التاريخ للسنة الاولى يذكر «في مدة قصيرة استطاع العرب الجياع ان يقضــوا على القوى العظيمة الايرانية والرومية» ، وامعانا في اثارة الفرس ضد العرب اضاف الكتاب قائلا : «ان العــرب الضــائعين اســتطاعوا ان يتغلبوا على الجيش الايراني العظيم والمنظم وذلك في معارك القادسية وجلولاء ونهاوند» ، وهذا النص له خطورته في تسميم افكار الناشــئة وخلق ازدواجية قائمة على تمجيد دولة فارسية قديمة وعصر مجــوسي في وقت يعرف فيه الناشئة انهم مسلمون والمعارك المذكورة هي امجاد اسلامية تحررت فيها شعوب ايران من الظلم والاستغلال وتخلصــت من الفكر الوثني .

ولتمجيد الفكر الفارسي القديم والحط من العرب وحضـارتهم تكثر النصوص المتضمنة تأكيد هذا الاتجاه فتذكر «عندما تسلط العرب على ايران والروم ، كانوا قوما بدائيين لااطلاع لهم في العلوم والاداب ولا يعرفون سوى الشعر وركوب الخيل وذكر المفاخر القديمة ، هؤلاء القوم سكان الصحراء الذين لا اطلاع لهم على شؤون ادارة العالم والسياسة ، تمكنوا ان يتغلبوا ، ولكن تفوق ايران بالحضارة والعلوم جعلهم المغلوبين لحضارة ايران المشرقة» .

ويغرس هذا الكتاب لمادة التاريخ لدى الناشئة انهم (بتفوقهم الحضاري على العرب) قبلوا التعاليم الاسلامية التي جاء بها العرب «الاجانب» على ذوقهم الخاص ، ومن هنا نلاحظ محاولة جعل الناشئة يشعرون بانهم مسلمون ولكن في الوقت نفسه يختلفون عن المسلمين الاخرين .

ويتجسد العداء السافر للعرب بشكل فاضح ، حين نجد الكتاب يتناول بالتحليل المسار التاريخي للدولة العربية الاسلامية بالشكل الذي يجعل الناشئة يؤمنون بان الايرانيين لو كانوا يدركون بأن العرب سيكونون هم القادة لما تقبلوا الاسلام :

«بعد ان استقر الحكم الاسلامي بيد عائلة الامويين المغرورين ادرك الايرانيون كم كانوا في خطأ حين تصوروا بأن الاسلام سينقذهم ، فكما كانوا في السابق ينوؤن من الظلم الداخلي اصبحوا الان تحت سيطرة الغزاة العرب» .

والاعجب من ذلك نرى بقاء عقدة الهزيمة في نفوسهم واستمرارها جيلا بعد جيل وهذا ما يوضحه النص التالي :

«تعتبر سنة ١٣٢هـ مهمة جداً في تاريخ ايران واغلب المؤرخين يعتبرون واقعة الزاب وهزيمة مروان تشفيا لهزيمة الايرانيين في القادسية» .

وينكر الكتاب كل اثر خالد للعرب ويحاول ان يقدم صورة قاتمة عن العرب وحضارتهم قبل الاسلام مقارنة بما كان للايرانيين (من عظمة

وجلال في ذلك الوقت) .

وعند استعراض التطورات السياسية التي شهدتها ايران في تلك الحقب يطلق الكتاب عبارة (حكومة العرب العنصرية في ايران) ، ويقول ان (الانتفاضات التي حدثت في ايران قد استطاعت انزال ضربات شديدة بنفوذ هذه الحكومة وهيأت الجو المناسب لاعادة استقلال ايران) و (أن نهضة الايرانيين نهضة قومية وطنية قوامها الفلاحون الذين اعدموا جميعاً بيد عمال الخليفة وعملائهم ولكن الايرانيين لم يرضخوا لسلطة العرب بأي حال من الاحوال) .

وفي كتاب التاريخ المقرر للسنة الثانية في المدارس المتوسطة، هناك فصل بعنوان «الجزيرة العربية والقومية العربية قبل الاسلام» ، يصور العرب مجردين من كل فضيلة خالين من أي مبادىء او حضارة ، ويعبر عن الفتح الاسلامي بالهجوم العربي ، بينما يعبر عن اليهود بلفظة يهوديان على غرار ايرانيان لتدل على التعظيم ، وورد فيه : أوقف الهجوم العربي وتسلطه لمدة طويلة كل تقدم في وطننا» .

وبشأن جزر الخليج العربي ، يذكر الكتاب «من موانى وجزر ايران في الخليج «الفارسي» هرمز وقشم والبحرين» .

ولما كانت مادة التاريخ تدخل في مواد أخرى مثل تاريخ الادب والجغرافية ، فقد طعمت هي ايضا بما يعزز النهج العدائي للعرب ، فقد تضمن كتاب تاريخ الادب للمرحلة الثانوية ، نصوصا تاريخية عديدة تخدم هذا الاتجاه ، حيث ورد فيها :

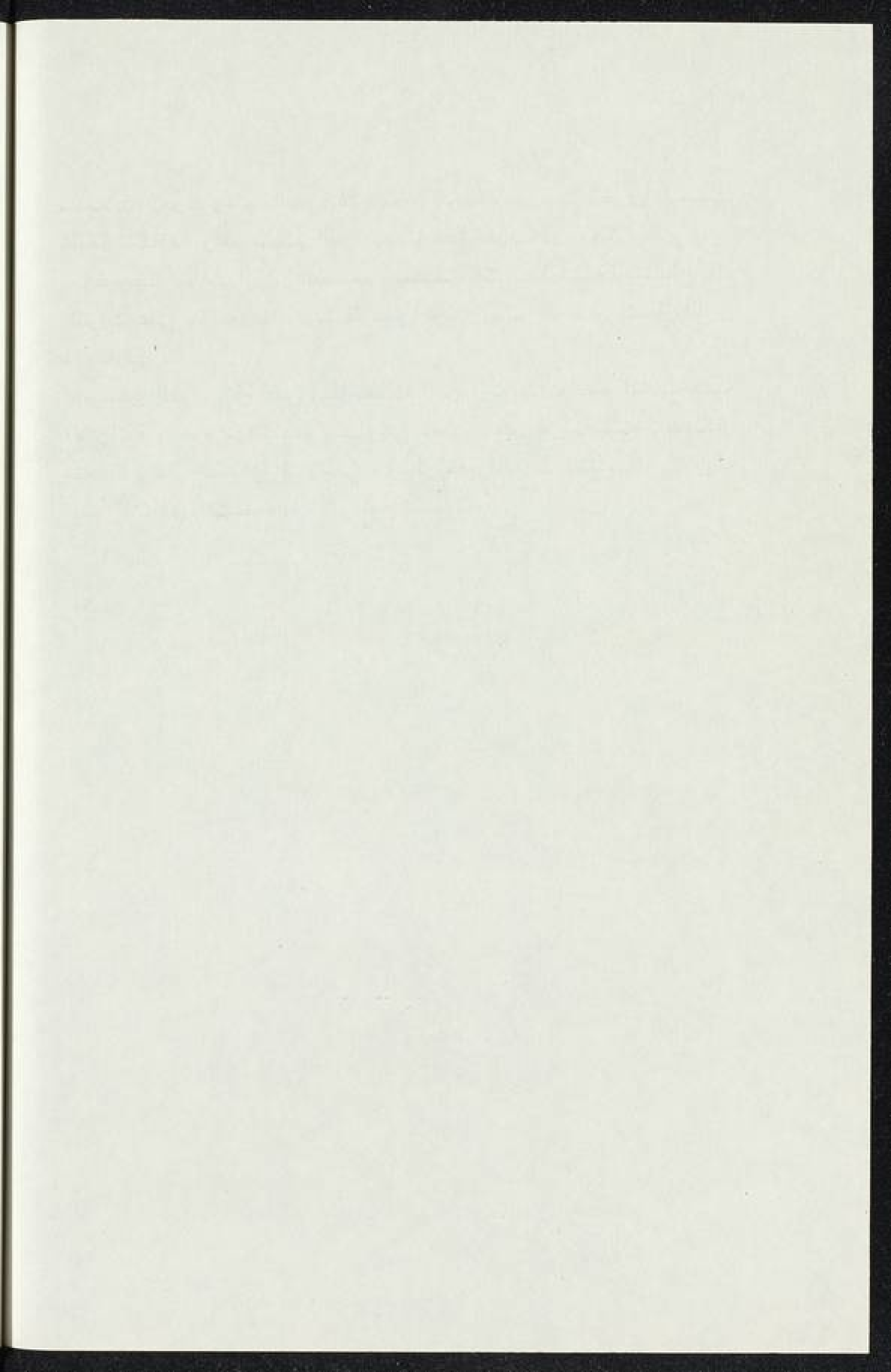
«من اسباب ضعف وانقراض دولة الساسانيين هو وقوع الحرب مع البدو في واقعة ذي قار في عصر خسرو برويز ، واندحار الجيش الايراني المنظم الذي كان يضم اربعة الاف جندي على يد عصبة من العرب البدو وسواهم في حوالي ٦١٠م» .

وبشأن الفتح الاسلامي يعرض الكتاب صورة قاتمة للحكم العربي الاسلامي فيقول ، «بعد واقعة فتح الفتوح اصبحت ايران ميدانا

لحملات العرب وهجماتهم وغارتهم من جهة ومن جهة اخرى اصبحت تابعة للخلافة ولقد تحكم العرب فينا مدة تقرب من مائتي عام».

وتمجيداً لتراث ايران القديم، يظهر الكتاب أسفة لضياع ذلك التراث على يد العرب بسبب غلبتهم وتغيير رسم الخط وانتشار الدين الاسلامي.

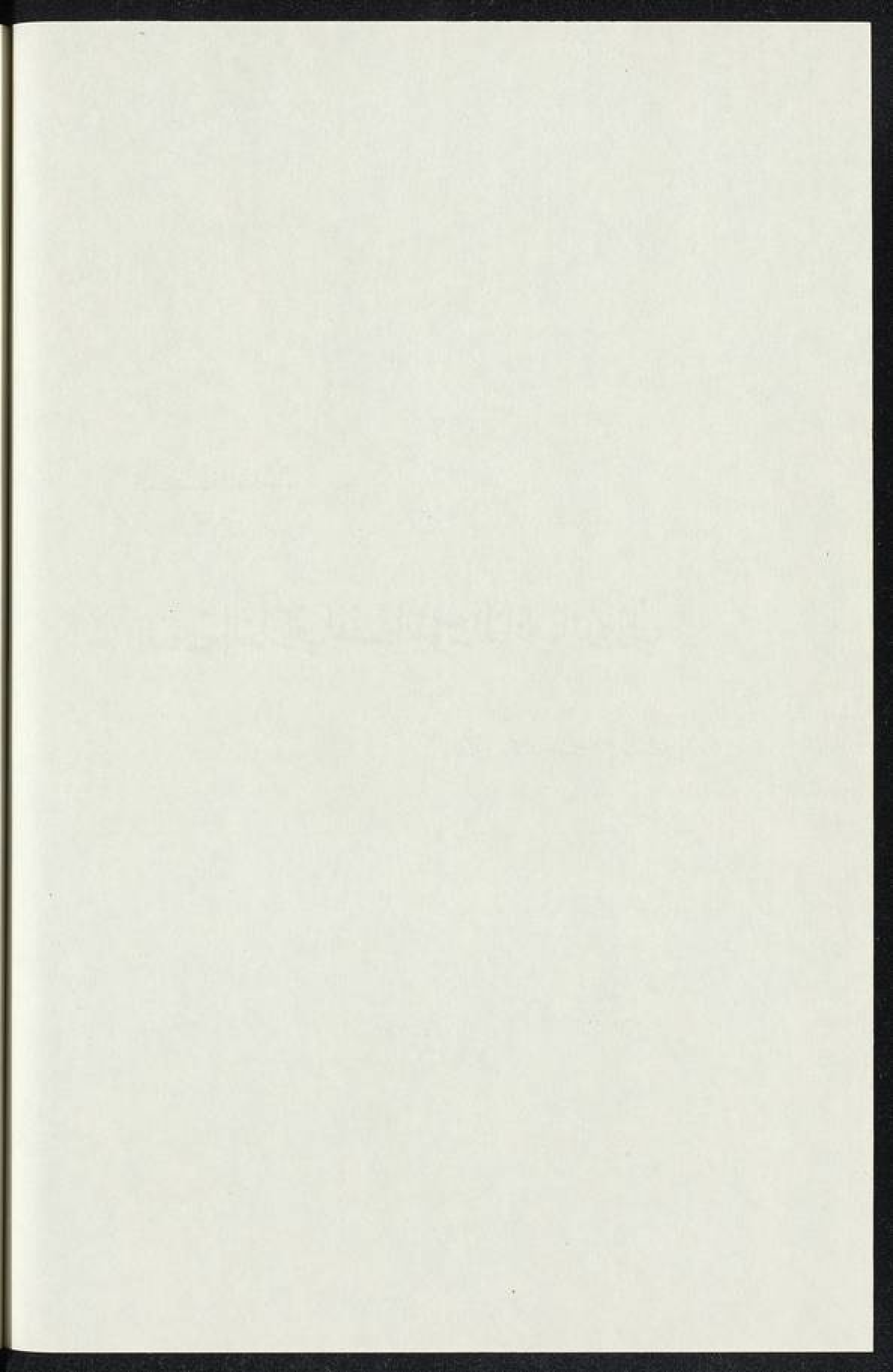
ويمكن القول بناء على ما تقدم، ان ارتباط عناصر الشخصية الايرانية ومقوماتها بنمط سلوكي معين، عبر عن نفسه باشكال متعددة، عبر السياق التاريخي، وبطريقة واسلوب التنشئة، كان له ابلغ الاثر في الشخصية الايرانية الحديثة.



البَحث الثالث

التفسير التاريخي لعقدة التوسع الخارجي الايراني

الدكتور عماد عبد السلام رؤوف



التفسير التاريخي لعقدة التوسع الخارجي الايراني

ليس التاريخ ، وأعني به عرضه عبر مرحلة او مراحل ، هدف هـذا البحث ، وانما هو وسـيلة واداة لهـدف أعلى ، أعني به تحليله وفـق قواعد المنهج التاريخي وصولا الى تحديد الحلقات المتشابهة والمتكررة فيه . ومع ايماننا العلمـي بان احـداث التاريخ لا تتكرر ، لاسـتحالة استعادة عوامل التجربة التاريخية نفسها ، فان ثمة عامل اساس يبقى منهـا لا يتغير ، يكون سـببا في ذلك التشـابه ، واعني به البيئة الجغرافية . فاذا كانت دراسـة التاريخ تقـودنا الى فهـم الدوافـع الاساسية لشعب ما ، فـان للبيئة الجغـرافية الدور الاول في تحـديد اتجـاهات اندفـاعاته . واذا كان التاريخ يمثل العـامل المتحـرك في التجربة الماضية ، الا وهو الانسان ، فـان الجغـرافية تمثل العـامل الثابت فيها ، وبالتوصـل الى فهـم العـلاقة بين العـاملين ، الثابت والمتحرك ، يمكن تحديد المتشابهات في ماضيه ، وكذا التنبوء ـ الى حد ما ـ بخطواته المتوقعة في الحاضر ايضا .

وطالما كانت تلك المتشابهات صادرة عن دوافع متشـابهة ان لم تكن واحدة ، فان من هذه الدوافع ما كان يتجـاوز مبرراته الموضـوعية ، ليتحول ـ عبر مر المراحل ـ الى «عقـد» مسـتحكمة شـبيهة بالعقـد

النفسية التي تصيب الفرد ، فمهمة المؤرخ هنا هي تحليل الشخصية ـ موضوعة البحث ـ عن طريق استعراض مراحل ماضيها ، للتوصل الى تحديد «العقد» التي أثرت وتؤثر في صنع ردود أفعالها ازاء الظروف المختلفة وفي تعيين سلوكها واتجاهاته .

وتبرز «الشخصية الايرانية» كنموذج واضح لاستخدام هذا المنهج ، فدراسة تلك الشخصية وفق قواعد المنهج النفسي البحت ، يشبه اقامة بناء ضخم على فراغ هائل ، فالمحلل النفسي بوسعه تحليل شخصية مريضه باستعادة ماضيه ، اما بالسؤال المباشر ، ام بالتداعي الحر ، ام بغير ذلك من الوسائل . ولكن كيف يمكن للباحث استعادة ماضي الشعوب الايرانية دون دراسة ذلك الماضي وفق قواعد المنهج التاريخي؟ ومن ناحية اخرى ، فان دراسة الشخصية الايرانية على ضوء وضعها الجيوبولتيكي الحالي وحده ، يدفع الباحث الى الوقوع في خطأ علمي فادح ، هو افتراض الواقع حقيقة ، اي ان ايران التي هي أمر واقع فرض نفسه على الشعوب الايرانية ، وعلى جيرانها ايضا ، تصبح «حقيقة» ذات أبعاد مطلقة ، وهو أمر مناف للحقيقة ذاتها .

تتألف ايران ، بحدودها الحالية ، من بيئات جغرافية متنوعة للغاية ، ففي الوسط هضبة صحراوية كبرى (٥٠ بالمئة من مساحة البلاد) تحيط بها مجموعة من الجبال ، متفاوتة الارتفاع والمناخ ، على هيئة عدد من السلاسل ، فجبال البرز من الشمال (جنوب قزوين) ، وزاجروس من اقصى الشمال الغربي الى نواحي الجنوب الشرقي ، والمرتفعات الشرقية من الشرق (سجستان) . ولقد اثر هذا الوضع الجغرافي على تاريخ تكوين السلطة المركزية في ايران وفي اتجاهاتها تأثيرا بالغا ، ففي ظل مثل هذا الوضع ، حيث لا يمكن لوسط البلاد اداء اية حركة محورية تجذب الاطراف الاخرى في سلطة مركزية واحدة (على العكس تماما لما هو الحال في العراق) لعبت حافات الهضبة الدور الاول في تاريخ ايران ، فكانت السيطرة على هذه

الحافات هي السبيل الوحيد امام اية قوة بشرية لان تفرض سيطرتها على عموم البلاد ، فمن غير الالتفاف حوالي الهضبة لا يمكن انشاء اية سلطة مركزية ، وتدل مواقع العواصم العديدة لايران (برسبولس ، هيكاتومبيلس ، تبريز ، اصفهان ، شيراز ، طهران) على اتجاهات حركة الالتفاف هذه ، ومن هنا اصبح التوسع وفرض الهيمنة السياسية والثقافية والعقائدية والعسكرية على شعوب حوافي الهضبة الوجه الحقيقي لما عرف بحركة توحيد ايران .

ومثلما أثر داخل الهضبة المجدب على طبيعة التكوينات السياسية في مناطق الحواف ، فقد أثرت المناطق المحيطة بهذه الحواف ، على تلك التكوينات تأثيراً متبادلا صاغ علاقات ايران بجيرانها لعدة عصور تلت ، فمن ناحية اولى ، لم تكن كحوافي الهضبة أرض اكثر جذباً للمجموعات البشرية المختلفة عرقا وثقافة ، فاستوطنها الميديون القادمون من الشمال ، والكوشيون القادمون من الشرق ، والعرب القادمون من الغرب . ومن ناحية اخرى ، نزلت اقوام من حوافي الهضبة ، تحت تأثيرات اقتصادية مختلفة ، الى الاقاليم المجاورة ، فاتجه الكوتيون واللولوبيون الى الغرب ، والعيلاميون الى الجنوب الغربي[1] بينما كانت اقوام آرية ، قد اندفعت الى الشرق ، مزيحين من أمامهم شعوب الدارفيديين وشعوب موندا الاسترو - آسيوية (٢٠٠٠ - ١٢٠٠ ق . م)[2] وهكذا فقد أدت حوافي الهضبة ، على الدوام ، دوراً مزدوجاً يتردد بين الطرد والجذب ، ولكنه تردد باتجاه الخارج لا الى الداخل ، وكان التوقف عن الطرد ، اي الاندفاع الى الخارج يعني - بالضرورة - توقع انجذاب شعب جديد الى الداخل . وبما ان البلاد لم تكن تملك مركز استقطاب وصهر قومي - كما

---

(١) كيرشمن : ايران از اغازتا اسلام ، ترجمة دكتور محمد معين (تهران ١٩٥١) ص ٣٥ .

(٢) لانجر : الامبراطوريات الاولى في افريقيا واسيا (في موسوعة العالم اصدرها وليام لانجر ، الترجمة العربية ، القاهرة) ١/ ٩٥ .

المعنا ـ فقد ظل انجذاب اقوام كهذه الى الداخل ، سببا في تجزوء حوافي الهضبة سياسيا بين تلك الاقوام ، وفقدانها ، من ثم ، وحدتها السياسية المفروضة ، وبذا فقد اصبح التوسع الى الخارج الوجه الاخر لسياسة فرض الهيمنة السياسية والعسكرية على شعوب حافات الهضبة في الداخل ، وهي حقيقة اثبتها «تاريخ ايران» نفسه بكل جلاء وقوة .

وقد لعب الفرس ، وهم احد الاقوام الهندوآرية التي استوطنت الحافة الجنوبية الغربية للهضبة الايرانية ، دوراً متميزاً في هذه الحركة التوسعية وارساء تقاليدها السياسية ، ففي عهد الاخمينيين (٥٥٨ ـ ٣٢١ ق . م) تكونت النواة التوسعية الاولى ، بيد ان هذه النواة لم تتجه اولا لتوحيد ذاتها ، ثم التوسع الخارجي ، كما يحدث في غيرها من الامم ، وانما امتزج التوحيد الداخلي ، بالتوسع الخارجي ، الى الحد الذي ضيع الفروق بينهما غالبا ، فلقد توسعت فارس الاخمينية باتجاه القسم الشمالي الغربي من حوافي الهضبة ، فضمت المملكة الميدية (٥٥٠ ق . م) ولكنها بدلا من ان تتجه شرقا لضم حوافي الهضبة الاخرى ، توسعت باتجاه الغرب ، الى خارج هذه الحواف اصلا فاحتلت العراق (٥٣٨ ق . م) واتخذت بابل احدى عواصمها ، ولا شك في ان اتخاذ دولة ما عاصمة لها خارج اقليمها يدل على عدم التفرقة بين ما هو في نطاق اقليمها ، وما هو خارجه . ولم يكن الفرس الاوائل يميزون بين نوعي التوسع هذين ، بل انهم وصلوا في توسعهم الى مصر (٥٢٥ ق . م) في حين لم تكن سيطرتهم على حوافي الهضبة قد اكتملت بعد .

اتسم توسع فارس بالسمة العسكرية البحتة ، لذا فقد جاءت ثماره على شكل احتلال فعلي لعدد من أوطان الشعوب الاخرى ، لها لغاتها المختلفة ، وثقافاتها المتنوعة ، وليس نتيجة لمد حضاري فارسي ، او حركة مركزية تستقطب تلك الشعوب نحو ثقافة واحدة . وان عدم اقتران الفعل العسكري الفارسي بالعطاء الحضاري ، هو ما فسره

بعض الباحثين من المستشرقين[٣] وتابعهم في ذلك الفرس المحدثون، بانه تسامح اتجاه ثقافات الشعوب المغلوبة بعدم اجبارها على اعتناق عقيدة الغالب وهو قول مردود لانه لم تكن لدى الفرس، في تلك المرحلة من تاريخهم، اية عقيدة خاصة، اذ لم يتم اقتباس الزرادشية واعتناقها الا في عهد دارا الاول (٥٢١ _ ٤٨٥ ق. م) اي بعد أكثر من قرن من تأسيس الدولة[٤].

لم يكن الفرس على مستوى حضاري مكافيء للحضارات المتقدمة التي اخضعوا شعوبها لسيادتهم عسكريا، وبخاصة الواقعة الى الغرب من بلادهم، لذا فقد اخذوا موقعهم «كمتلق» للحضارة لاصانع لها، فالديانة الزرادشتية ورموزها لم تكن فارسية وانما اخذها الفرس من الشعب الميدي بعد ان قضوا على استقلاله السياسي[٥] ولم يجدوا ما يكتبون به كلامهم الا الكتابة المسمارية العراقية، فالارامية العربية، بل ان الاخيرة اصبحت لغة الامبراطورية الرئيسة[٦] وكان تأثرهم بفنون النحت البابلي والاشوري بخاصة، بالغا، حتى انهم اتخذوا رموز الاشوريين وشاراتهم شعارات لهم، فضلا عن فنون العمارة الاخرى، حتى عد الباحثون ومنهم اكثرهم تعصبا للفرس، دولتهم، بانها مجرد استمرار للدول الرافدينية[٧].

ورغم مبالغة بعض المؤرخين[٨] وتهويلهم في ذكر حسنات الاحتلال الفارسي للشعوب الاخرى، فان اشارات عديدة تناثرت في كتبهم[٩].

---

(٣) جرندي: الفارس وامبراطورية الشاه الاعظم (في تاريخ العالم، اصدار هامرتن، الترجمة العربية، القاهرة) ٢/ ٤٦٢ _ ٤٦٣.

(٤) كرستنسن: ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب القاهرة ص ٢٢.

(٥) يؤكد كرستنسن (المصدر السابق ص ٢٢) ان الزرادشتية ظلت مدة قرون غريبة في وسط المزدية الايرانية القديمة.

(٦) سارتون: تاريخ العلم (القاهرة ١٩٧٠) ٢/ ٨

(٧) كرستنسن: ص ٤.

(٨) توينبي: تاريخ البشرية (ترجمة نقولا زيادة بيروت ١٩٨١) ١/ ١٨٩

(٩) انظر المصدر نفسه ١/ ١٨٩ _ وكيرشمن ١٨٦ _ ١٧٩.

دلت على كثرة الثورات القومية التي اندلعت في اوطان الشعوب الخاضعة لذلك الاحتلال . ودلت سرعة انهيار «ايران» وتفككها امام قوات الاسكندر المقدوني على ان قبضة فارس الاخمينية على عموم تلك الاوطان لم تكن الا قبضة عسكرية ولم تكن قد نجحت في تكوين «وحدة حضارية» تعم «ايران» بعد . فبمجرد انهيار المؤسسة العسكرية عادت «ايران» الى وضعها القديم ، دولا وامارات مستقلة مختلفة ، الا ان فكرة قيام احدى اقوام حوافي الهضبة بالسيطرة على سائر الاقوام الاخرى عن طريق التوسع ، وهي فكرة عسكرية محضة ، لم تكن قد ماتت .

وكان انفتاح الهضبة على حضارات البحر المتوسط ، وبخاصة في العهد الهلنستي (عهد خلفاء الاسكندر) قد زاد من حدة تناقض الفرس مع دول تلك الحضارات وشعوبها ، فلقد دل انبهار فارس بمظاهر الحضارة تلك ، على شعور بضآلة موروثهم الحضاري تجاه الحضارات المتقدمة المزدهرة الى الغرب من بلادهم ، وهو شعور كانت له جذوره منذ عهد العيلاميين والاخمينيين ، وتبينوا ان استمرار هذا الانفتاح سوف يؤدي الى الاقلال من فرص بسط سيطرتهم على شعوب حوافي الهضبة ، لذا فقد عمد الفرثيون ، الذين اعقبوا السلوقيين خلفاء الاسكندر (٤٧ ق . م ٢٢٧ م) الى حياء التقاليد الفارسية الاخمينية ، باتجاه نهج التوسع الخارجي وسيلة لفرض الهيمنة على جيرانهم من الشعوب القاطنة على حافات تلك الهضبة ، وهي التقاليد التي عبرت عن المفاهيم الجيوبولتيكية القائلة بان اي توقف عن الطرد اي الاندفاع الى الخارج ، يعني توقع انجذاب شعب جديد الى الداخل .

وجاء اختيار الفرثيين موقع سلوقية الهلنستية موقعا لعاصمتهم الجديدة طيسفون ، دليلا على ادراكهم احد اهم قواعد تلك المفاهيم ، فلقد ادرك الفرثيون الان ان عدم احكام قبضتهم على السهول الخصبة الواقعة الى الغرب منهم ، من شانه ان يضنلك رقعة الى

خطر خارجي ، كالذي حدث على يد الاسكندر ، كما ان التوسع الخارجي بحد ذاته كان يقدم مبرراً قوياً لسياسة التوسع الداخلي بضم القوميات حوالي الهضبة تحت قبضة حكومة مركزية قوية[١٠] .

ولم ينجح الفرثيون في استعادة امبراطورية الاخمينيين ، اي هيمنتهم العسكرية ، الآ بعد أن طرحوا انفسهم «بديلا وطنيا» لحكم السلوقيين ذي الاصول اليونانية الاجنبية ، وذلك بهدف استقطاب القوميات العديدة ، حوالي الهضبة ، حول هدف واحد مشترك ، هو تخليصها من الخطر الاتي من غربها ، ولم يكن هذا الطرح ، الا الاساس الذي اتخذه الفرس ، في المراحل التاريخية التالية ، لفرض هيمنة متزايدة على تلك القوميات واخضاعها الى سيطرتهم او نفوذهم ، صارفين انظارها عن حقيقة ان الفرس ليسوا الا «اجانب» في اوطانها ، وان حكمهم لتلك الاوطان هو الوجه الاخر لتوسع فارسي حقيقي ، وتشير رواية ذات مغزى[١١] الى ان أرزاس (ارشاق) مؤسس الدولة الفرثية ، ارسل الى امراء ايران يخبرهم بعدم رغبته في ان يكون ملكا مطلقا على البلاد ، لكنه يتمنى ان يراها مستقلة من نير الاجانب وتعهد لكل واحد منهم بان يحافظ له على امارته (استقلاله) فجاءوا لمعونته ونصروه على الاعداء ، وظل كل واحد على حاله ، بينما اصبح ارزاس هذا رئيس التحالف الذي تتألف منه دولة الفرثيين .

ومعنى هذه الرواية ان قيام الدولة ، لم يكن الا توسعا جغرافيا للسلطة الفرثيه تستتر وراء «هدف وطني» وان توحيد ايران ازاء خطر ما ليس الا صياغة جديدة للتوسع الفارسي في عهد الاخمينيين رغم ادعاء الفرثيين ـ على زعم الرواية ـ الزهد بالسلطة .

وكان احياء الرموز الاخمينية ، كالراية الامبراطورية الشهيرة ، وبعض المظاهر الاخرى ، وما صحبها من ميل الى تأكيدها والمبالغة

---

(١٠) انظر : Debevoise, A Political History of Parthie 1930) -

(١١) شاهين مكاريوس : تاريخ ايران (القاهرة (١٨٩٨) ص ٦٣

بها يمثل «الصلة الرمزية» بين كل مرحلة واخرى من مراحل التوسع الفارسي، لتضفي على هذا التوسع «طابعا ايرانيا» عاما يشمل سائر القوميات حوالي الهضبة. وبمعنى اخر، فان تقاليد السياسة الاخمينية فالفرثية، كانت تساوي «فهم» امكانات وضع «ايران» الجغرافي، وفق جيوبولتيكية لا تحقق اغراضها الا بالتوسع المستمر، وهكذا تحولت «الفارسية» من كونها احدى القوميات في «ايران» الى عقيدة توسعية، تعبر عن وضع جيوبولتيكي معين، اكثر من تعبيرها عن ارادة امة او قومية بذاتها. وهذا ما يفسر ظهور سلالات حاكمة في ايران من غير الفرس، التزمت بسياسة الفرس نفسها.

ولقد مثل قيام الدولة الساسانية (٢٢٧ ـ ٦٣٧م) اوج ما بلغة مفهوم التوسع الفارسي، ايرانيا (اي في حواف الهضبة الايرانية) وخارجيا (اي في الاقاليم المجاورة)، فقد سار هذا التوسع، في عهد اردشير، اول ملوك الساسانيين، من فارس الى الخليج العربي، فغزا الاحواز، والى سواحل المحيط الهندي، اذ استولى على كرمان وباتجاه العراق، حين اسقط حكم امارة ميسان العربية، ثم قضى على حكم الفرثيين تماما. وجريا على تقاليد التوسع الفرثي، دخل اردشير المدائن، مقتفيا آثار الملوك السابقين، ومطبقا سياسة توسعية استهدفت لملمة شتات شعوب حوافي الهضبة، ومعظمها اخضع بالقوة، في اطار هدف واحد، وتحت قبضة مركزية قوية، ومضى التوسع في طريقه، فضم اوطان الخوارزميين والميديين والجبليين والديالمة والهركانيين (سكان جرجان) والصغديين والتورانيين والارمن والبكتريين (نواحي افغانستان) وغيرهم. وبعد ان كان لقب اردشير هو ملك ملوك ايران (شاهنشاه) اتخذ خلفه سابور لقب ملك ملوك ايران وغير ايران (شاهنشاه ايران وانيران)[١٢].

وبعد ان كانت جيوش الدولة السابقة تتألف غالبا من الفرس

---

(١٢) كرستنسن ٢٢٧

والميديين ، ترددت في العصر الساساني اسماء اقوام عديدة دخلت جيش الدولة الفارسية الجديدة ، ان طوعا او كرها، فبقدرما كان وجود جيوش ضخمة دائمة يعد «اداة» للتوسع خارج حواف الهضبة ، فان وجود مثل هذه الجيوش كان «هدفا» بحد ذاته ، اذ ليس كالجيش اداة لدمج الامم المختلفة العروق والثقافات ، ورغم ان جيشا في مجتمع متعدد القوميات ، لاشك في انه سيكون مثله ، الا ان التنوع القومي لم يترك اثاره الا على الرتب الصغيرة والمتوسطة . اما قيادة الجيش (ايران سباهبد) فقد ظلت بيد الفرس وحدهم . ومن المهم القول بان دمج القوميات على هذا النحو ، لم يكن يعني – بالضرورة – تفريسها اللغوي المباشر ، وانما اقناعها بالولاء للمؤسسات المركزية للدولة ، تلك المؤسسات التي كانت تعمل وفق المفاهيم الجيوبولتيكية التي اوجدها الفرس أنفسهم . وهو ما يفسر بوضوح سبب احتفاظ الدولة المركزية بجيوش ضخمة تضم عناصر عديدة في مراحل تاريخية مختلفة ، سوف نتابعها فيما بعد ، وهو يفسر ايضا لم كانت السياسة الفارسية تذكي شعور التوجس لدى الشعوب غير الفارسية من جيرانها ، والتوسع على حسابهم حتى وان لم يكن ثمة مبرر لذلك .

وفي الحقيقة فان كل شيء وظف لصالح تثبيت التوسع الفارسي على حساب القوميات الاخرى ، فالجهاز البيروقراطي كان وسيلة لاحكام مركزية الادارة ، ونظام الطبقات المحكم ، ببيوتاته (الواسبوران) وعظمائه (بزركان) واشرافه (آزادان) ليس الا اداة لابقاء السلطة بيد الفرس الغالبين ، وتنظيم علاقاتهم ، غير المتكافئة ، بزعماء البلدان المغلوبة ، والعناية بالطرق الواصلة بين الاقليم ، كانت تهدف الى شد الاقاليم في مركزية واحدة ، والاهتمام بالبريد يتوخى مراقبة الثائرين ورصد ظواهر الثورات والانتفاضات القومية في الامبراطورية ، والتهويل في مظاهر الحكم ، كتضخيم التيجان والرايات والقصور .

---

(١٣) تالف الجيش الساساني من قوميات عدة : الجستانيون والالبانيون والكوشيون والهياطلة والارمن . كيرشمن ٣١٦ – ٣١٧ .

كان يصب في تيار خلق جو من الرهبة ازاء كل ما هو مركزي في «ايران» ، واتخاذ بيت نار رئيسي ملكي ، بدلا من وجود عدد من المعابد في الاقاليم ، كان يهدف الى ابرازه مظهراً للوحدة الدينية ـ الملكية ، اي رمز الملكية الساسانية المتحالفة مع رجال الدين .

واتخذ التوسع الى خارج حوافي الهضبة مسارين اساسين ، الأول باتجاه المنافذ الشرقية للهضبة ، للاتصال بطرق التجارة الرئيسية المؤدية الى منطقة واسعة تشتمل على كل الاقليم المعروف قديماً ببكتريا (وهو الذي يمتد من افغانستان الى شمالي باكستان وجنوبها ، وجنوب ايران وشرقها فهذه كلها منطقة طبيعية واحدة) ، والثاني باتجاه المنافذ الغربية للهضبة الايرانية للسيطرة على طرق المواصلات العالمية ، التي تصل بين اهم منطقتين في العالمين القديم والوسيط ، هما البحر المتوسط والمحيط الهندي ، وكان هذا يعني السيطرة على بلاد ما بين النهرين اولا ، ثم مدها باتجاه البحر المتوسط نفسه ، والهيمنة على سواحل الخليج العربي .

ويمكن تشبيه طرق التجارة هذه ، وهي أعصاب الاقتصاد ، بانها على هيئة دائرة تحيط بالهضبة الايرانية ، لها منفذان : شرقي وغربي وكانت سيطرة الدائرة على المنفذين يمثل امكان اتصالها بطرق التجارة الشرقية والغربية على حد سواء . وفي الواقع ، فان الفرس حاولوا توظيف الجيوبولتيكية الاقتصادية لايران لصالحهم ، فان موارد التجارة على هذه الطرق كانت تشكل مورد الدولة المركزية التي فرضوها على الشعوب غير الفارسية حوالي الهضبة نفسها .

وكان بدء انهيار الدولة الساسانية على يد العرب المسلمين عقب معركة القادسية سنة ١٦/ هـ ٦٣٧ م بداية لانتقاض القوميات العديدة حوالي الهضبة الايرانية على القبضة المركزية الفارسية ، ولعل من ابرز ملامح ذلك الانتقاض مقتل يزدجرد الثالث ، ملك الساسانيين نفسه ، على يد اتراك خراسان ، ودخول شعوب عديدة في دولة المساواة الجديدة ، من الارمن والقبج والاذربيجانيين والترك والصغد

والجرجانيين والاكراد .

ورغم المقاومة التي ابداها بعض امراء تلك الشعوب بتحريض من القيادة الساسانية ، فان سرعة انهيار المؤسسات المركزية في الدولة وتقبل الشعوب للدين الجديد ، كشف بوضوح عن ان تلك المؤسسات لم تكن الا ادوات هيمنة فارسية ، حتى ان بعض الحكام الفرس انفسهم لاحظ بانهم ازاء «امم مختلفة»[14] وليسوا شعبا واحدا .

وكان اعتناق الفرس الدين الذي حمله العرب ، يمثل اعقد تحول في العقلية الفارسية فقد تأجج شعور الفرس بالنقص تجاه العرب ، وهو شعور لم ينقطع عن جذوره القديمة ، حينما احس بهم اسلافهم العيلاميون والاخمينيون والفرثيون والساسانيون ، تجاه تيار الحضارة الذي كان يهب عليهم من هذه البلاد .

ولما لم يكن ممكنا ارضاء الاحساس الحاد بالنقص هذا ارضاء مباشرا ، باتخاذ اجراء مضاد بالمستوى نفسه ، فقد عمدت العقلية السياسية الفارسية الى ايجاد مجالات ارضاء معوض ، عن طريق التقرب والتملق للحكم العربي الاسلامي ، في محاولة للابقاء على مركزهم الاجتماعي والاقتصادي بين الشعوب غير الفارسية ، ليس باعتبارهم «الدولة المركزية» وانما بصفتهم «الطبقة المركزية» الأقدر على ادارة شؤون اوطان الشعوب الاخرى[15] . وبعد ان كان التوسع الفارسي الجغرافي على حوافي الهضبة يتخذ شكله العسكري ـ السياسي الصريح ، اخذ هذا التوسع يعتمد اسسا اجتماعية ـ اقتصادية بديلة ، بل كان من النتائج الجانبية لهذا التحول ظهور اعراض تعويض مبالغ Over Comdensntion خارج على تقاليد المجتمع وآدابه ، تجلت في

(١٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك (القاهرة ١٩٦٣) ٤/ ١٥٦ .

(٥) نصح الملك شهربراز ، وهو فارسي كان حاكما على منطقة «الباب» القائد عبدالرحمن ابن ربيعة بان ليس ينبغي لذي الحسب والعقل ان يعين امثال هؤلاء (يريد الشعوب غير الفارسية التي كان يحكمها) ولا يستعين بهم على ذوي الاحساب والاصول (يقصد الفرس) وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان (الطبري ٤/ ١٥٦) ويقول كرستنسن (ص/ ٤٩٤) ان كان معظم الاشراف قد دالت دولتهم فان جذع الدهاقين المتين قد بقي .

الغطرسة والتعالي ، وهـي اعراض وسـمت الشـخصية الايرانية في العهود اللاحقة .

ومن الواضح انه لم يكن ممكنا ابقـاء الطبقـة الحـاكمة القـديمة لنفوذها وامتيازاتها في اوطـان الشـعوب الاخـرى ، الا باعتناق دين الدولة الجديدة : الاسلام ، فبتاكيد الفرس على ان ما يربطهم بالعـرب الفاتحين ، كونهم جميعا من ذوي الشرف ، يكشـف على ان نظـرتهم الى العرب كانت على اساس انهم فاتحون مثلهم ، وانهـم يشـتركون واياهم «بحق الفتح» والامتيازات المترتبة عليه ، ولهذا السـبب اعتنق رجال المؤسسات القديمة الاسلام بسرعة ، امـا مشـاعرهم الحقيقية تجاه الدين والدولة الجديدة ، فقد تراوحت بين الكبح SUppression والكبت Pepression انتظاراً للفرصة المؤاتية لابرازها ، ان كان ذلك عن طريق متعمد مدرك لدوافعها كما تجلى ذلك بمؤامرات ابي مسـلم والبرامكة وابن سهل مثلا ، او عن طريق الحاح الدوافـع المكبوتة على دخولها مجـال الشـعور ثانية ، على مـا تمثل في تكوين عشرات مـن الحركات الدينية .. الاجتمـاعية الغـالية ، التي هـي في محصـلتها الاخيرة عداء للعـروبة والاسـلام ومحـاولة لاحياء المفـاهيم الجيوبولتيكية الفارسية . وفي الواقع فان هذه المفـاهيم وجـدت لهـا تطبيقات مباشرة ، او غير مباشرة ، مـن قبل جميع الكيانات المركزية التي تمكنت من الاستحواذ على حوافي الهضبة وعلى شعوبها ايضاً ، مثل دول الصفاريين (٢٥٤ ـ ٢٩٠هـ/ ٨٦٧ / ٩٠٣م) ـ والسـامانيين (٢٦١ ـ ٣٨٩هـ ٨٧٤ ـ ٩٩٩م) والزياريين (٣١٦ ـ ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢ م) والغـزنويين (٣٥١ ـ ٥٨٢هـ/ ٩٦٢ ـ ١١٨٦ م) والبويهيين (٣٢٠ ـ ٤٤٧هـ/٩٣٢ ـ ١٠٥٥ م) والسـلاجقة (٤٢٩ ـ ٧٠٠هـ/ ١٠٣٧ ـ ١٣٠٠ م) وكل ما في الامر ، ان ايا من هـذه الكيانات (وعدد منها لم يكن فارسياً بالمرة) طبق مفاهيم الفرس التوسـعية بالمقـدار الذي يناسبه ، وبالاتجاه الذي يريد ، مستهدفا ، بقصد او بغيره ، المدى الذي وصلت اليه الدولة المركزية الفارسية القديمة من توسع .

ومع ان معظم اصول تلك الكيانات قد اندفع من مناطق شرق الهضبة الايرانية ، فالصفاريون من سجستان ، والسامانيون من بلخ ، والسلاجقة من صحراء قرغيز ، الا انهم جميعا اتجهوا في توسعاتهم غربا باتجاه العراق(١٦) ورغم ان توسعهم هذا جاء متسترا برغبتهم بالابقاء على الخلافة العباسية ، فانهم مارسوا ضغوطا جمة على الدولة العباسية في العراق ، بل ومضى بعضهم في توسعه مجتازا حوافي الهضبة الغربية ، الى العراق نفسه ، حيث هيمنوا على مقاليد السلطة فيه ، مثلما فعل البويهيون والسلاجقة .

وجاء الغزو المغولي للهضبة الايرانية بمثابة تأكيد جديد على الابعاد التوسعية للجيوبولتيكية الفارسية ، فانشاء دولة مغولية مركزية في «ايران» لها اطماعها التوسعية باتجاه الغرب ، لم يكن يخرج على تلك المفاهيم ، بل ان قيادات فارسية فكرية كانت تعيش كجزر وسط المحيط الاسلامي العام ، وجدت المجال في هذا العصر ، لتقفز الى مواقع مؤثرة قريبة من السلطة ، توجهها وفق مفاهيمها تلك ، وبكلمة اخرى ، فان تحطيم المغول للمجتمع الاسلامي التقليدي وقيمه كان يعني زوال القوى الكابتة Repressing Forces للشعور الفارسي وافساح المجال امامه لان يلج مجال الشعور الصريح ثانية ، والتعبير عن نفسه بجلاء ، ولم يكن تحول شخصية فارسية كبيرة ، كنصير الدين الطوسي (٥٩٧ ـ ٦٦٢هـ/ ١٢٠١ ـ ١٢٧٤ م) من موقعه كمفكر من الاسماعيلية (الحشيشية) الى بلاط هولاكو ليصبح مستشاره الفارسي ، الا احد مظاهر هذا التأثير الجديد ، فقتل الخليفة العباسي (كرمز لاستقلال السلطة السياسية في العراق) والتعاون مع الصليبيين في الساحل السوري ، وتشجيع الثقافة الفارسية ونشرها ، واستقطاب القيادات الفكرية الاسلامية الى جانب المغول ، وضد الوجود العربي

---

(١٦) the Camdrige History of Iran Voi, 4, From the Arad invasion to the Saijuqs (Cambridge, 1975)

كانت كلها مراحل لتوسع فارسي جديد ، اتخذ من الموجة المغـولية اداة له .

وكان شيوع الثقافة الفارسية ، وبخاصة لدى الاوساط الحاكمة بعد فترة طويلة من الجدب ، دليلا على تأثير تلك القيادات الفـارسية على الكيان السـياسي الجـديد في الهضـبة الايرانية ، ومـواصلتها عملية تفريس الشعوب غير الفارسية من حـولها ، وقـد ازداد هـذا التأثير طرديا بمضي الوقـت ، ولم يغير منه ان عددا مـن الاقـوام التي تولت السلطة بعد المغول الايلخانيين ، من جلائريين وتيموريين وغيرهـم ، كانوا من غير الفرس اصلا ، بل ليس مصطلح «العالم الايراني» الذي اطلق على الكيانات السياسية في ايران والاناضول قبيل مفتتح القرن السادس عشر(٧١) ، الا مظهراً من مـظاهر توسـع بطـيء ـ باتجـاه الغرب ، وفي نفس المناطق التي سبق لدول مركزية فـارسية قـديمة ان احتلتها من قبل .

وكان تأسيس الدولة الصفوية في اواخـر القـرن الخـامس عشر ، وتوسعها السريع في سائر انحاء الهضبة الايرانية ، يمثل اوج ما وصل اليه الشعور الفارسي من التعبير عن نفسه ، ازاء الشعوب الاخرى .

فرغم ان منشـأ الدولة كان في اردبيل مـن اقليم اذربيجـان ، فـان مسارات توسعها طابقت ما جرى عليه توسع الدولة الفارسية من قبل ففي عهد مؤسسها الشـاه اسـماعيل (١٥٠٠ ـ ١٥٢٤ م) تم احتلال الحوافي الشمالية من الهضبة : شروان واذربيجان ، ثم الالتفاف شرقا لاحتلال خـراسان وبلخ وهـراة ، والمضي غربا لاحتلال الاحـواز والعراق . ولقد نجح الصـفويون في اذكاء روح الشـك والتوجس لدى الشعوب غير الفارسية من (خطر مـرتقب) وبخـاصة ذلك الاتي مـن الغرب ، (اي الوطن العربي) موظفين تلك الروح في اقناع تلك الشعوب بضرورة الابقاء على نوع من الهيمنة الفارسية عليهـا ان هـي ارادت

---

(٧١) Toynbee, A., a Study of History, Vol. 1, pp. 347- 402 -

المدافعة عن اوطانها ازاء ذلك الخطر ، فكان ذلك مزجا عجيبا بين مفهومي الدفاع والتوسع ، اذ ان التوسع الايراني في الخارج ، هو الضمانة الوحيدة لاستمرار التوسع الفارسي في الداخل .

وجاء التحدي العثماني للتوسع الفارسي بنتائجه المرجوة داخليا اذ كان سببًا في انشاء اول جيش حديث في ايران ، يتولى مهمتين اساسيتين اولاهما قمع الثورات القومية العديدة الناشئة في اوطان الشعوب غير الفارسية ، وثانيهما ان يكون مجالا مثاليا لاستئناف سياسة دمج القوميات المختلفة ، وجعل المؤسسات الفارسية تبدو مؤسسات مركزية ايرانية .

بيد ان الخطر المرتقب لم يأت من الغرب حسبما كانت الدولة الصفوية تهيىء له اذهان الشعوب الخاضعة لها ، وانما جاء من الشرق ، كما هو حال معظم الاخطار الفعلية التي تعرضت اليها الهضبة الايرانية ، فقد انطلقت من جبال افغانستان سنة ١٧٢٠ جيوش افغانية قوية بقيادة محمود الافغاني ، لتهاجم كرمان ، فاصفهان ، ثم معظم ارجاء الهضبة ، وتخضعها لسيادتها ، منتهزة فرصة اندلاع ثورات الشعوب فيها (البلوج ، اللزجيون ، اللور ، الاكراد) ، ورغم ان أشرف خان ، خليفة محمود الافغاني ، كان نفسه محتلا لاقاليم الهضبة فانه طالب ـ كما لو كان صاحب حق ـ بالمناطق التي كان يحتلها الفرس ، باعتبارها اقاليم فارسية ، وكانت هذه الاقاليم قد خضعت ـ آنذاك ـ الى الحكم العثماني . وتجلت هذه السياسة بوضوح ، عندما حذا الافغان حذو المحتلين الفرس من قبل ، باشاعة عقدة العداء والتوجس ازاء «الخطر المرتقب» من الغرب ، فاشرف خان مثلا خوّف قبائل الاكراد من ان العثمانيين اذا استولوا على اصفهان (العاصمة آنذاك) فانهم اي الاكراد ، يصبحون رعايا مستعبدين[١٨] مع انه لم يكن يختلف عن العثمانيين من حيث طابع

---

(١٨) علاء نورس ، العراق في العهد العثماني (بغداد ١٩٧٩) ص ١٢٩ .

حكمه الاحتلالي باي شكل من الاشكال .

ومثلما حدد الشرق ، لا الغرب ، مصير الدولة الصفوية ، حدد مصير دولة الافغان نفسها ، فنادر قلي (نادر شاه فيما بعد) القائد الذي كانت على يديه نهاية الافغان ، كان من قبيلة آفشار التركمانية النازحة من تركستان ، اي من الشرق ايضا ، وقد استطاع بقبيلته ان يحتل خراسان ، واصفهان ، وفارس ، ساتراً حقيقة توسعه هذا ، باحترام واه لاحد احفاد الاسرة الصفوية القديمة وليس هذا الاحترام في الواقع الا لتأكيد ان احتلاله لايران ليس الا استمراراً للسياسة الفارسية التقليدية نفسها ، وهي التي تعد التوسع على حساب اوطان شعوب حوافي الهضبة الايرانية مساويا لتوحيد السلطة المركزية . ولما كان الوجه الاخر من تلك السياسة ، هو استثمار عقدة الخوف والتوجس لدى تلك الشعوب من «الخطر المرتقب» فان نادر شاه طرح احتلاله لـ «ايران» كبديل وطني لاحتلال فعلي كان العثمانيون والروس قد قاموا به لبعض الحوافي الشمالية والغربية للهضبة الايرانية . وفي الواقع فان احتلالهم لهذه المناطق لم يؤد الا الى استثارة العقدة الفارسية بقوة ومكنه من القيام باعمال توسعية خارجية نشطة ، اتجه معظمها كالعادة الى الغرب ، فكان ان غزا بقواته الضخمة المؤلفة من شعوب مختلفة عرقا وثقافة ، العراق وحاصر مدنه الرئيسية سنوات ١٧٣٣ و ١٧٣٦ و ١٧٤٣ مخلفا وراءه من الماسي والاذى ما افاضت مصادر الحقبة بتفصيله ، ولم يختلف بشيء عما فعله الحكام الفرس في توسعاتهم من قبل .

وكان ابرز اداة توسعية صنعها نادر شاه ، ذلك الجيش الضخم الذي قدر عدده بنحو نصف مليون جندي ، وضم معظم ابناء قوميات الهضبة . ورغم ان نادر نفسه لم يكن فارسيا من حيث العرق ، الا انه كان كذلك من حيث السياسة ، وبذا فقد اصبح هذا التجمع البشري الهائل يستمد قاسمه المشترك من تراث فارس التقليدي المبني على المفاهيم الجيوبولتيكية التي اشرنا اليها ، وكان الخوف من ان تؤدي

حالة السلم الطويل الى زوال عقدة التوجس ، الموحدة لقوميات الهضبة تحت سيطرتة ، يدفعه الى اذكاء متعمد لهذه العقدة ، بافتعال التحديات العسكرية مع الشعوب المجاورة ، واثارة الحروب عليها ، فعندما احس نادر شاه بفتور آثار هذا الشعور لدى قواته ، في اثناء فترة وجيزة من السلم اعقبت توسعه في الهند ، بادر الى محاربة ملك بخارى وخوارزم وخيوه وداغستان[19] ، فكان ذلك التوسع الجديد ، وقاية لنظام حكمه في الداخل ، ومحافظة على ثمار توسعه فيه .

ومضيا مع سياسة الدمج بين القوميات المختلفة ، استخدمت الدولة المركزية ، التي اقامها نادر شاه ، سياسة التلاعب بالتركيب القومي لشعوب اقاليمها ، وذلك بطريق التهجير القسرى او الاقناعي ودفع القبائل الى مواطن شعوب غيرها ، وهي السياسة التي تحولت ـ فيما بعد ـ لتصبح احدى الوسائل الثابتة للتوسع الايراني ، كما سنرى .

وكان مقتل نادر شاه سنة ١٧٤٧ م دليلا على ان سياسة شد القوميات المستمر التي اتبعها ، والتأكيد على المركزية بين شعوب متنوعة فكرا وانتماء ، قد زادت على الحدود المعقولة آنذاك ، الى حد كبير ، اذ سرعان ما انتفضت الشعوب التي حكمها ، بمجرد سماعها بنبأ مقتله ، فاستقل الافغان في بلادهم من جديد ، وثار القاجاريون ، وهم من تركمان الشمال ، واعلنوا استقلالهم في نواحي اذربيجان ، وتم للعرب في الاحواز تحرير مناطق مهمة من بلادهم ، كان نادر شاه قد اسكن فيها قبائل الافشار ، بينما ثارت قبيلة بختياري في الجنوب واستولت على اصفهان العاصمة ، وثار الزنديون الاكراد ايضا ، وهكذا انهار كل ما استهدفه هذا الحاكم من توسعه بسرعة مذهلة .

وفي عهد كريم خان الزند (١٧٥٧ ـ ١٧٧٩ م) الذي خلف نادر شاه في حكمه ، تم وضع اللمسات الاخيرة في الجيوبولتيكية الفارسية ، فقد توقف رسميا اي اهتمام للدولة المركزية ، بالمشرق ، ولم تعد ثمة

---

(١٩) شاهين مكاريوس : تاريخ ايران ٢٠٦

محاولات للتوسع شرقا ، باتجاه ممرات افغانستان وسهول السند ، وهي المناطق التي طالما استقبلت ايران منها معظم فاتحيها ، واستقرت الحدود الشرقية لحوافي الهضبة تماما ، وهو امر من شأنه ان يخفف الجيوبولتيكية الفارسية مما كان يشغلها شرقا ، لتضع ثقلها كله باتجاه واحد ، هو الاقاليم الواقعة الى الغرب منها اي العراق وسواحل الخليج العربي ، حتى غدا تاريخ العلاقات الايرانية ـ العراقية ابان القرنين الاخيرين خاصة ، لا يمثل جانب منه في الاقل ، الا تاريخ التجاوز المستمر على الاقاليم الحدودية للعراق ، وضمها تدريجيا ، وبذرائع مختلفة ، الى الولايات الايرانية الغربية . وكان اول ما قام به كريم الزند من اعمال منذ توليه السلطة ، ان نفذ ثلاث عمليات عسكرية توسعية على حساب العراق فشلت اثنتان مهما (في الشمال والوسط) ونجحت الاخيرة في احتلال البصرة (نيسان ١٧٧٥ ـ نيسان ١٧٧٦) . وكان اخطر ماورثه الزنديون عن الافشاريين ، اتباع سياسة توسعية تستهدف تغيير التركيب القومي للمناطق الحدودية او القريبة من الحدود ، عن طريق دفع القبائل الفارسية لتحتل مناطق تقيم بها القبائل اللورية ، ومن ثم تشجيع الاخيرة للتوطن في المناطق الحدودية ، ومزاحمة القبائل العربية فيها ، وما بعدها ، لخلق مبرر للمطالبة بها ، وضمها فيْما بعد . ولقد ادى هذا الاسلوب متضافرا مع الاساليب الاخرى ، دورا غير حميد في مزاحمة الشعب العربي في الاحواز في مجالات رزقه ، ونزع تلك القبائل لمناطق مهمة كانت تقيم عليها قبائل عربية معروفة .

وتولى القاجاريون (الذين بداوا توسعهم بالاستيلاء على اذربيجان وانتهوا بالاستيلاء على اقليم فارس ، وبضمنه العاصمة شيراز) تنفيذ السياسة الفارسية التقليدية ، اذ سرعان ما شن فتح محمد علي القاجاري (١٧٩٧ ـ ١٨١٤) هجوما عنيفا ، استولى فيه على قضاء زهاب وبضمنه قصر شيرين وكرند ، عنوه ودونما اي مبرر . وفي الحقبه نفسها كانت المؤامرات تحاك في ايران لبسط مزيد من الهيمنة

على الشعب العربي في الاحواز ، انتهت بالحصول على اقرار رسمي من الدولة العثمانية بالتنازل عن هذا القطر الى الشاه سنة ١٨٤٧ .

ولم تتوقف عمليات التوسع طيلة الحقبة اللاحقة ، متخذة اساليب شتى ، تراوحت بين الاستخدام السافر للقوة المسلحة ، ودفع القبائل اللورية والفارسية غربا بهدف طمس الهوية القومية للأرض العربية القريبة من الحدود . والتوسل بالاتفاقيات لاقرار نتائج ذلك التوسع ثم نقضها عند كل عملية توسع جديد ، واتخاذ مختلف المبررات للتدخل في الشؤون العراقية[٢٠] وتحريض شعوبها للمضي في سياسة العدوان على العراق في محاولة لالهاء هذه الشعوب عن واقعها التي تعيشه تحت الهيمنة الفارسية .

وفي الواقع ، فان احياء مظاهر ومفاهيم متخلفة ، واسقاطها على الحاضر ، وخلق جو من اللاعقلانية ، وتأجيج النعرات البدائية ، والعصبيات القائمة على أسس بالية لاظل لها في الواقع ، كان قد اصبح احدى الوسائل الثابتة في لم شعث قوميات عديدة ، لكل منها ثقافتها وتراثها المستقل[٢١] ولما لم يكن كالنزعات العدائية اكثر بدائية وتخلفا ، فقد اضحت اثارة هذه النزعات ، واقناعها بين حين واخر ، بمزيد من الاعمال العدوانية التوسعية يمثل علاجا مناسبا لاية حالة تفكك تعرض لها ، «الوحدة الداخلية» .

---

(٢٠) عماد عبدالسلام رؤوف : الوضع التاريخي لمدن واراضي الحدود الشرقية البرية للوطن العربي ـ بحث نشر ضمن كتاب الحدود الشرقية للوطن العربي دراسة تاريخية ، اصدار جمعية المؤرخين الاثاريين في العراق ، بغداد ١٩٨١ ـ ١٤٣ ـ ١٨٠ .

(٢١) من الخصائص العقلية للجماعات ، ما وصل اليه جوستاف لوبون في تحليلاته الاولية من ان عقلية المجتمع احط من عقلية الفرد ، بمعنى انه اذا اجتمع افراد متنوعي الاختصاصات (اي متميزي الذوات) فان الحديث الذي يربط بينهم لن يكون اعلى ما في احدى تلك الاختصاصات وانما فيما يشتركون فيه جميعا ، وعادة ما يكون طعاما او مشربا او مغامرة اي ما يفرضه المجال الغريزي وما يقرب منه . فاذا اعتبرنا الافراد هنا هم القوميات المتميزة الذوات ، والمجتمع هو مجموعة القوميات التي تؤلفها الدولة فمن الطبيعي ان يكون ما يربط بين تلك القوميات ادنى مما لدى القومية الواحدة من روابط ، فتكون تلك الرابطة مثلا ، طقوسا متخلفة ، ومناسبات بدائية ، ونزعات عدائية .

ولسنا نريد هنا ان نستعرض القائمة الهائلة الحافلة بانواع التجاوزات على أرض العرب ومياههم القومية ، ابّان الحقبة اللاحقة ، فذلك مما يدخل في نطاق التفاصيل التاريخية ، ولكننا لن نجد ابلغ تعبير عن هذه الدوافع التوسعية مما يحدث من عدوان مستمر على قطرنا وامتنا العربية منذ اكثر من ثلاثة اعوام ، ولا نشك في ان استمرار الفرس في مواصلة هذه الحرب ، يعني المضى الى آخر مدى في تنفيذ المفاهيم الجيوبولتيكية الفارسية ، وهو بالنسبة لهم ــ اخطر امتحان تتعرض له هذه المفاهيم في العصر الحديث ، وعليهم رهان ان يثبتوا صحتها ، فان لم يفعلوا ــ ولن يفعلوا بأذنه تعالى ــ لم تكن لسيطرتهم على شعوب ايران نفسها جدوى ، لان هذه السيطرة هي الوجه الاخر من مفاهيمهم الجيوبولتيكية نفسها .

ان الفرس يكررون الان ، نفس اخطائهم في جميع المراحل السابقة اذ ان اصطدامهم المستمر بجدار العراق القوي المنيع ، في الغرب ، سوف يزيد من احتمالات تعرض ايران الى خطر اخر من الشرق . فان لم تتخذ المقاومة الايرانية دورها في اسقاط النظام ، وايقاف عجلة الحرب ، لم يكن لذلك المصير من مناص .

